
د. سامي
الدروبي
الرواية
في الأدب الروسي

د . سامي الدروبي

الرواية

في الأدب الروسي

الرواية

في الأدب الروسي



هـذا الكتـاب

حـين سأل عميد الادب العربي طـه حسين المستشرق الروسي فلاديمير كراستوفسكي رأيه في ترجمة سامي الدروبي الاعمـال الكاملة لدوستويفسكي قـال :

« لو أن دوستويفسكي كتب بالعربية لما كتب أجمل من ذلك » وكتب احمد بهـاء الدين عن ترجمات الدروبي في المصور مايلي :

« ان سامي الدروبي يملك ناصية اللغتين الفرنسية والعربية ، وهو يترجم ترجمة علمية مدروسة ، فوق الحس الادبي والفني الملائم لها تماما بالاضـافة لفهمه لروح الكاتب مما جعلت ترجماته مختاره ونهائية . وقد عمـل بجهـد حتى استطاع أن يترجم ثمانية وعشرين كتابا،منها الاعمال الكاملة لدوستويفسكي في ثمانية عشر مجلدا ومن أعمال تولستوي خمسة مجلدات ، وابنة الضابط لبوشكين ، ومياه الربيع لتورجنيف وبطل من زماننا لليد منتوف والموسيقي الاعمى للكورولنكو ولحن كرويتزر لتولستوى والزوج الابدي لدوستويفسكي .. »

وبعد .. فمن ياترى أجدر من الدروبي ليطلعنا على / الرواية في الادب الروسي / من القرن الرابع عشر ولغاية القرن العشرين .. واذا كانت مخطوطة هذا الكتاب لم تر النور في حياة الدروبي فها نحن ننشرها ليستمتع القارىء العربي بعطـاء الدروبي بعـد رحيلـه .

النـاشر

مقدمة

وأنا أقلب دفاتر زوجي وزوايا مكتبته . بعد فترة من رحيله عني وعن الأدب العربي الذي أسهم فيه بما ليس فيه مجالا لشرحه هنا وجدت على ثلاث دفاتر هذا العمل الأدبي الذي أضعه بين أيدي قراء العربية اتماما لرسالة زوجي التي نذر عمره لها ولأكون صادقة مع القارىء لم أستطع أبداً عندما اعدت قراءتها أن أكشف ما اذا كان هذا العمل قد خلقه الدكتور سامي الدروبي أم أنه مخلوق بلغة أخرى وهو يعيد ترجمته لقراء العربية . أن السبب الذي يجعلني أقول هذا يعرفه القراء والنقاد وهو ان الدكتور سامي الدروبي لم يكن مترجما وانما كان يعيد خلق العمل الذي بين يديه من جديد لكن الأمانة تقتضي ان أطلب من كل قارىء يعرف المصدر الصحيح لهذا المؤلف ان يتفضل باعطائي النسخة الأجنبية وبأية لغة كانت ليتدارك الناشر في الطبعة الثانية مايجب ان يكون .

دمشق ٢٧/ ٧/ ١٩٨١

إحسان بيات الدروبي

الفصل الأول

«أدب الروايـــــــــة»

ان الشعب الروسي الذي ظل حتى هذه السنين الأخيرة أميا برمته على وجه التقريب فلم يتح له الاتصال بالآدب المكتوب على انه ينعم بأسمى درجات العاطفة والخيال والحس الموسيقي قد تمتع بأدب شعبي غني ترويه الاجيال بعضها عن بعض ولايضارعه أدب شعبي في أي بلد من بلدان العالم .

شعر الملاحم ـ بينما نرى شعر الملاحم قد مات منذ قرون عند معظم الشعوب ، نرى في شمال روسيا ، في مناطق اولونس وأرخنجلك . رواة من الفلاحين ينشدون أغاني الملاحم الروسية . وقد درج النقد الأول على ان يسمى هذه الاغاني (بالقصص الحق)Bylines في حين ان الشعب لايعرفها الا باسم (قصص الزمان السالف) .

وان هذه الأغاني لتطرح عدة مشكلات . ويتفق الناس اليوم على ان هذه الأغاني ليست مبدعات شعبية عفوية ، وانما هي صنيع شعراء من أمثال شعراء التروبادور الذين عرفتهم القرون الوسطى ، والذين كانوا يمضون ينشدون اشعارهم وهم يعزفون على آلات موسيقية (التروبادور) ، ومعظم هؤلاء الشعراء (سكوموروفي) قد وفدوا الى روسيا من بيزانطة والبلاد السلاقية الجنوبية ليغنوا في بلاط الأمراء . وعلى ان الكنيسة التي تعادي كل لهو

الحياة الدنيا قد طاردتهم ، فقد احتفظوا أثناء احتلال التتر وفي العصور التي اعقبت ذلك ، بحظوة كبيرة في الأعياد الشعبية . وانتقل منهم الى الفلاحين والفلاحات . وفي الوقت نفسه فان هذه الأغاني ازدهرت اول الأمر في اكرانيا قد لجأت بعد ذلك الى أقصى الشمال . هربا من الاضطهاد ، وظلت مع ذلك تتغنى بوصف بلادها الاولى ، فيافي الجنوب . وأن بعض المغنين ، مثل رابينين العجوز الذي أتى به الى سان بطرسبرج في نهاية القرن التاسع عشر ، كان بعض هؤلاء المغنين يحفظون على ظهر القلب أكثر من ٥٠ ألفا من أبيات الشعر . على انه لابد ان نذكر ان مهمة الحفظ هذه كان يسهلها استعمال «قطع متحركة» أعني ابياتا يمكن ادخالها في أية قصيدة على السواء ، وهي التي تصف البطل وهو يسرج جواده ، أو يحارب أو يقيم عيدا .

ويتألف البيت من ثلاثة مقاطع معدودة ، يفصلها عدد متغير من المقاطع غير المعدودة وينتهي بمقطعين غير محدوين . والغناء لحن موقع متكرر ، لا تصحبه آلة موسيقية . وأقدم ديوان يضم هذه الأناشيد وهو الذي يقترن باسم كيرشا دانيلوف قد ظهر عام ١٨٠٤ . واكمل فيه ديوان ربنيكوف (عام ١٨٦٨) وديوان هلفردنج (عام ١٨٧٣) .

وقد حاول بعضهم ، جريا على المألوف ، ان يرد هذه القصائد الى اصول اسطورة تاريخية ، هندية فارسية . الا ان الدراسات الحديثة الجدية قد اكتشفت وجود تأثيرات ادبية متنوعة جدا ، أتت من بيزانطة ومن البلاد السلافية الجنوبية ، بل ومن الغرب أيضا ، ومن ذكريات العهد القديم (التوراة) والأناجيل المشكوك فيها .

وتنتظم هذه القصائد في عدة مجموعات أهمها مجموعة كييف . وفيها نرى طائفتين من الأبطالBogatyss اما الطائفة الاولى فهي طائفة الابطال «القدماء» (ولعلهم يرجعون الى أصل احدث من أصل ابطال الطائفة الأخرى) منهم سفياتوجور الذي يبلغ من الثقل ان الارض لاتكاد تقوى على حمله ، والذي يهلك مع ذلك ضحية زهده بقوته ، ومنهم فولجا سياتوسلافونتش الذي

يستطيع ان يستحيل الى جميع أنواع الحيوانات ومنهم الفلاح القوي ميكولا الذي يستطيع ان يحمل عربة لا يستطيع ان يرفعها عن الأرض ثلاثون رجلا .

واما الأبطال الأخرون فهم في خدمة الأمير فلاديمير الجميل ، وفلاديمير هذا لايشبه شبها دقيقا لا الأمير الاول المسمى بهذا الاسم اعني «معمدان» روسيا ، ولا فلاديمير مونوماك ، وهو يحكم كييف التي تحفل بالقصور والكنائس ، والتي تهددها دائما جيوش العصاة . ويعجز الأمير عن حمايتها وحده ، فيستنجد الأبطال الذين كثيرا مايكفر بنعمتهم بعد ذلك . واشهر هؤلاء الأبطال ايليا موروم ، وهو ابن فلاح ، وقد ظل مصابا بالشلل حتى الثلاثين من عمره ، الا انه اوتي بعد ان شفاه بعض الحجاج ، قوة هائلة ، فاذا هو يمزق شمل الأعداء شر ممزق ، وينقذ المدن ، ويأسر «قاطع الطريق» أنه بطل شجاع ، ولكن على حكمة ، وفي غير كبر ، ولا أثرة ، نذر نفسه للدفاع عن الارض الروسية والدين المسيحي . ويحارب العصاة الى جانبه دبرينيا نيكيتتش الذي يقتل التنين ، ويحرر أميرة اسيرة ، ثم أليوشا ، وهو ابن أحد الكهنة وهو مزهو بنفسه ، ماكر ، يحب النساء والمال ، ولكنه شجاع شجاعة هائلة .

أما القصائد التي تروى عن نوفوجورود ، مدينة التجار والتجارة ، فانها تختلف كثيرا عن قصائد كييف وتتغنى بمفاخر سادكو التاجر الغني الذي زار ملك البحر مرتين ، وأعطاه ملك البحر كنوزا عظيمة ، أو تتغنى بمفاخر المغامر فاسيلي بسلائيفتش .

وفي عهد متأخر ، تظهر في موسكو اناشيد تتغنى بايفان المرعب الذي يحرر قازان ويحمي الشعب من البويار ، حتى لنجد قصائد عن ديمتري الكاذب ، وبطرس الأكبر ، ولكن في فن منحط .

والى جانب هذه الاناشيد التي ليست من وحي ديني ، يملك الشعب الروسي طائفة غنية من الأناشيد الدينية Doukhounye stikhi الفها رهبان .

واستوحوها من العهد القديم والعهد الجديد والاناجيل المشكوك فيها

والاساطير البيزانطية ففي «كتاب الجماعات» نسمع الملك داود يشرح للامير فلاديمير كيف تم خلق الكون . وفي قصائد أخرى نسمع قصة آدم وحواء . وقصة لعاذر المسكين والغني الخبيث ، ونسمع مآثر القديس الكسيس . وهذه الاناشيد كانت تغنيها في الغالب جوقة من الحجاج المتسولين الذين استفادوا دائما من حماية الكنيسة . وهي تتغنى أكثر ما تتغنى بالرحمة . . الرحمة بالضعاف والخطاة الذين باركهم يسوع المسيح .

الحكايات والأمثال ـ والى نوع الملاحم أيضا تنتسب الحكايات ، ولكنها بلغة النثر المألوفة ، لا بلغة الشعر . وقد جمعت عدة مجموعات من هذه الحكايات منذ القرن الثامن عشر ، واشهر هذه الحكايات تتصل هي الأخرى بفولكلور اوروبا وآسيا ، وتنحدر من ينابيع لا نتوقع ان تنحدر منها .

فمثلا البطل الشعبي برفا ، ابن الملك ، ليس الا «بريف» آنتون وقد تروس (اصبح روسيا) بعد سفر طويل . ونجد في الحكايات الف موضوع وموضوع مما يعرف في فرنسا ، وانما مازجتها واقعية روسية ، وشعر روسي ، وفكاهة روسية .

فالأخ المضطهد ، الساذج ، اليتيم الذي يصل الى السعادة ، والساحرة باباياجا ، تبحر أحيانا على جرن عبر القارات ولكنها توثر ان تظل في مغارتها بالغابة ، قاعدة على عظام دجاج ، اذا جاءها زائر استدارت لتتيح له الدخول .

والتنين بدلا من ان يأكل الاميرة يؤثر ان يتزوجها ، فتنجب له غلاما .

والملكة تلد طفلا بعد ان تأكل سمكة من النهر ذات أجنحة ذهبية ، وتختبىء الأميرة تحت ريش البجعة ، وثمة علاقات وثيقة بين الحيوانات والبشر ، حيوانات خيالية أو حيوانات معروفة ، كالذئب والدب والحصان الأمين . والغابة والعزبة هما المكان الذي تجري فيه حوادث الحكاية ، ويملؤه الجن .

والشعب الروسي غني كذلك بالاقوال والامثال ، وفيها ترى ذكريات تاريخية كقولهم : «ضيف لم تدعه اسوأ من تتري» وترى فيها ملامح عاداتهم

القروية كقولهم : «الربيع جميل ، ولكنه جائع» وترى فيها ملاحظات بارعة ذكية ، وأفكارا دينية . وهناك عبارات كثيرة تجمع بين السحر والدين يقصدون بها الى شفاء البشر والدواب من أمراضها ، والى حماية المحاصيل والبيوت والمسافرين .

الشعر الغنائي ـ لقد استطاعت بعض الجوقات المشهورة ان تذوقّ جمهور الغرب ذلك الجمال الرائع الذي تنعم به الأغاني الروسية . وبعض هذه الاغاني يعود الى اقدم العهود وبعضها مستمد من الادب المكتوب ، وقد شرفه الشعب بان تبناه ، فصار يجري على حناجره . ومعظم هذه الاغاني لا قافية له ، يتألف من مقاطع معدودة يفصل بينها عدد غير مطرد من المقاطع .

وللشعب الروسي اغان لكل المناسبات . فالرقص مصحوب دائما بغناء . ولكل عيد من أعياد السنة اغانيه ، وللربيع اغان تسير بها الجموع من باب الى باب ولعيد الميلاد اغان تحي طقوسه التقليدية ، وليس لكلام هذه الاغاني من كبير قيمة في بعض الاحيان ، انها تذكر بطيران عصفور أو نحيب فرس في السهول ، وتذكر ببياض شجرة السندر وعناقيد شجرة الزيزفون ، وسبابخ الثلج وهي تدور .

وانما في الحب حزينة دائما ، واحزن منها اغاني الفتاة سينتزعها الزواج من بيت اهلها ، فهي تضرع وصديقاتها الى أبيها ان لا يسلمها الى اسرة غريبة ، وهي تضرع الى أخيها ان يحميها ويدافع عنها . والاعراس في القرى تتبع طقوسا قديمة ومازالت في بعض الاحيان تمثل الخطف البدائي وتحتفظ بتقاليد الزواج عند البوير في القرون الوسطى . وان هذه الطقوس المصحوبة بالاغاني لهي مشاهد درامية حقيقية ولكنهم يخلعون عليها قيمة تكاد تكون سحرية . وحزينة كذلك اغاني الجنود يودعون ، في روسيا القديمة ، قريتهم وبنات قلوبهم وداعا لا لقاء بعده و ثمة كذلك الندب على الأموات وهو لم يتغير منذ قرون ، ندب الام ولدها ، وندب الزوجة زوجها اذ تناديه : «ياصقري» و «يانوري» وتظل بعده معذبة شقية .

ان الغنى الموسيقى الذي تتمتع به هذه الاناشيد ، وماتجري عليه من ايقاع فرح مرح أو حزين كئيب والاصوات الروسية الجميلة التي تغنيها ، كل ذلك يجعل هذه الثروة الغنائية ذات قيمة عظيمة لا تضاهى .

المسرح الشعبي ـ لاشك ان الشعراء المنشدين «Skomorokhi» قد مثلوا قطعا هزلية (مساخر) ولعلهم ايضا مثلوا دراسات قصيرة ، ولكننا لا نعلم شيئا عن هذه الامور التي حاربتها الكنيسة حربا لاهوادة فيها وقد اقتبست بعد ذلك بعض الدرامات الدينية التي كانت تمثل في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وقربت من الذوق الشعبي ، اما «الاراجوز» فقد اتى من المانيا ، والشخصية الرئيسية فيه هي شخصية يتروشكا الخبيث .

الفصل الثاني

الأدب المكتوب قبل بطرس الأكبر

قبل الغزو التتري : لقد كانت الديانة المسيحية مركز الحضارة في روسيا ، كما كانت مركز الحضارة في الغرب وكان على الراهب وحده ، خلال قرون ، ان يغذي الشعلة الصغيرة المترجرجة من الثقافة .

ولقد اخذت روسيا ديانتها من بيزانطة ، وكان لهذا نتائج لا يحصيها عدّ ، ولقد كان في امكان روسيا ان تتأثر بالثقافة اليونانية ، الا ان حذر رجال الدين قد حدّ هذا التأثر بحدود تعاليم آباء الكنيسة . ولقد حرمت روسيا من أي اتصال بالكلاسيكية اللاتينية ، وحرمت الى ذلك من الحركات التكرية التي شهدتها القرون الوسطى وعصر النهضة وان لغة الكنيسة التي أتى اليها بها الرسل الاول ، اعني اللهجة البلغارية التي ترجم اليها سيريل وميتود النصوص المقدسة ، والتي يطلق عليها اسم «Slavon» قد امتازت بميزة كبرى ، وهي ان الناس ند فهموها في سهولة ويسر ، الا أنها في مقابل ذلك قد حرمت رجال الدين من معرفة الحضارة القديمة التي كان يمكن أن يدفعهم اليها استعمالهم لليونانية أو اللاتينية . فلما جاء الغزو التتري أكمل انعزال روسيا . فعاشت بعد ذلك خلال قرون ، على زخيرة ادبية كانت قد وصلت اليها من بيزنطة قبل عام ١٢٤٠ ، خاصة بواسطة الامبراطورية البلغارية ، ابان ازدهارها في القرن العاشر . فكانت تملك تراثا ادبيا واسعا الأناجيل ،

والأناجيل المشكوك فيها ، وخطب القديس جان كريزوستوم ، والقديس بازيل ، وسير القديسين يضاف الى ذلك أخبار بيزانطة ، وبعض ذكريات من حرب طروادة ، والاسكندر ، وأباطرة الرومان كل ذلك قد نقل في الأديرة بلغة تحورت شيئا فشيئا حتى اقتربت من الروسية وظلت لغة الادب الى القرن الثامن عشر .

واقدم مخطوط روسي (وهو مخطوط مزخرف زخرفة غنية) هو «انجيل استرومير» وقد أسماه كذلك رجل من رجال الدولة ، نقل له الشماس جريجوار مقتطفات من الأناجيل لايام الآحاد ، واعياد السنة وهناك مجموعات «Isbornik» اخرى جمعت بعد ذلك ببضع سنين للامير شعيا توسلاف ، وهي تحوي صفحات لأباء الكنيسة ، ومن حياة القديسين ، وتاريخا لأباطرة الرومان ، وحتى بعض مبادىء البلاغة .

واننا لنرى المنافسة الروسية تظهر منذ ذلك الحين فنرى بعض الوعاظ يكتبون خطبا على غرار القديس جان كريزوستوم ، ونرى ماهو أهم من ذلك بالنسبة الينا ، نرى مؤرخين يكتبون تاريخ بلادهم على غرار المؤرخين البيزانطيين ، وحوالي عام ١١١٥ ، كتبت في دير بكييف ، اخبار الأزمنة السالفة (او «تاريخ نسطور» كما يسمونه) ، وقد نسخت هذه الاخبار كثيرا ، ودخلت عليها اضافات كثيرة تكملها ، واقدم مخطوط نملكه منها هو مخطوط الراهب لورانت سوزوال ، وهو يرجع الى عام ١٣٧٧ ، وان المؤرخ الذي كتب هذه الأخبار يرجع الى عهد الطوفان ، ليقرر تسلسل السلافيين ، احفادجافت ، ويذكر الاسطورة التي اتت الى روسيا بالرسول آندره ، الا ان الشيء الهام في تاريخه يبدأ حين يأخذ يتحدث عن عهد قريب منه كل القرب ، هو عهد بناء مدينة كييف ، وانتقام اولجا ، وموت اولج ، وهداية فلاديمير الذي عمد شعبه في نهر الدينيبر بعد ان دحرج فيه تمثال الاله بيروان . وهذه الحوادث التي تمتزج فيها الاسطورة بالواقع يقصها المؤلف قصا يفيض بالحياة ، والوضوح ، والالوان ، كما انك تلمس فيه روح الاعتزاز بروسيته ومسيحيته .

ومن الكتابات الرائعة كذلك ، بما تطلعنا عليه من اخلاق ذلك الزمان ، ومن قوة شخصية صاحبها «وصايا» فلاديمير مونوماك (١٠٥٤ ـ ١١٢٥) لابنائه وفيها تقرأ مبادىء دينية وأخلاقية وترى نصائح حصينة عن واجبات الأمير ، مزينة بذكريات شخصية ، ويلح مونوماك خاصة على واجب الضيافة واكرام الغرباء ، وعلى مزايا التعليم .

وكان الروس ، في ذلك العصر ، مازالوا على صلة بالبلاد الاجنبية ، وكان الرهبان لايترددون عن الشروع بأسفار طويلة ، وكان المتأدبون منهم يقصون اخبار هذه الاسفار .

ففي عام ١١١٥ يسافر الراهب الى القدس الشريف ، فيصف الاماكن المقدسة وصفا دقيقا ولاسيما كنيسة قبر سيدنا يسوع المسيح ، ويحضر في هذه الكنيسة قداس ليلة عيد الفصح ، ويرى كيف تهبط من السماء نار تشعل مصابيح الارثوزكسيين الذين يجب على اللاتين ان يطلبوا منهم ان يتصدقوا عليهم بالشعلة وتلاحظ ان هذا الراهب لا يعتز بانه ينتمي الى الكنيسة الشرقية فحسب ، بل يعتز كذلك بانه روسي ولا ينسى في اي هيكل من الهياكل ان يصلي لوطنه وامرائه .

وقد وصف المطران انطوان ، مطران نفجورود ، الأبنية الدينية في القسطنطينية وما حفظ فيها من آثار ولأوصافه هذه قيمة ثمينة جدا ، لاسيما وان رحلته عام ١٢٠٠ سبقت بقليل دخول الصليبيين الى القسطنطينية واستباحتهم اياها نهبا وتقتيلا .

وهناك قصة شهيرة جدا بعنوان «معركة ايجور» ، وهي تروى قصة حملة تعيسة قام بها اثنان من ابناء عم الأمير سفياترسلاف ، وهما ايجور وغسيغولود ، ضد البولغستين . وتنتهي الحملة بانكسار الاميرين انكسارا دمويا ، ويقعان في الأسر ويستولي الخصوم على الأرض الروسية ويعبثون فيها نهبا ويتوصل ايجور مع ذلك الى الافلات من الأسر . وانك لترى في هذا الأثر من كل شيء كتب بنثر شعري يبلغ قمة الجمال في بعض الأحيان ، ويغمض في

احيان أخرى . ترى معارك ، ومناظر طبيعية ، وشيئا من الاساطير السلافية ، والافكار المسيحية ، والآراء السياسية التي تنبض حكمة ووطنية ، وترى كذلك مقطعا غنائيا جميلا ، وهو نوح امرأة ايجور التي وقفت على سور بوثيتل ، واخذت تتهم العناصر الشريرة بانها سببت الخسارة للروس . والمؤسف ان نسبة هذه القصة الى مؤلفها ليست محققة . والمخطوط الوحيد الذي عرف عنها ونشره الكونت موسين بوشكين عام ١٨٠٠ قد احترق في حريق موسكو ، ويستحيل ، والحالة هذه التحقق من صحة نسبتها . واغلب الظن انها متحولة وان المصدر الرئيسي الذي عرفت منه واستوحته قصيدة تعود الى القرن الخامس عشر ، تروى معركة كوكيوفو ، اعني القصيدة المعروفة بعنوان «Zabonchtchi» وقد اعتاد النقاد الروس ان يروا في هذه القصيدة تقليدا لقصة معركة ايجور ، وعندي انه عكس ذلك أرجح .

ثم يأتي الطوفان الاعظم الذي يوقف تطور روسيا ايقافا مفجعا ، اعني الغزو التتري الذي تعقبه عبودية تدوم قرنين وتحطم روح البلاد ، رغم ان الغزاة لم يحاولوا ان يفرضوا ادارتهم ، ولا لغتهم ولا دينهم .

ولم يكن هذا العهد ، من الناحية الفكرية ، فترة جمود فحسب ، بل كان مرحلة تراجع وتقهقر . ان البوير في القرن الخامس عشر أميون عن بكرة أبيهم تقريبا ، حتى ان كثيرا من الكهنة يحفظون صلواتهم على ظهر القلب لجهلهم بالقراءة .

بعد التحرير ـ لقد تغير وجه روسيا تغيرا كاملا ، حين اعلن ايفان الثالث استقلال روسيا ، ورفض دفع الجزية للتتر الذين اصبحوا اضعف من انّ يقتضوها ولم يبق ثمة أمارات مستقلة ، «وجمع» امراء موسكو الارض الروسية تحت سلطتهم واصبحت موسكو الحرة تطمع في ان تحل محل القسطنطينية التي اصبحت مستبعدة كمركز للمسيحية الحقيقية ، وقد ساعدها على ذلك لاجئون وفدوا اليها من القسطنطينية والبلاد السلافية الجنوبية ، وشهدت موجة جديدة من الحضارة ترد اليها من نفس النبع الذي وردت منه الموجة

الاولى ، مع وافد ضئيل من الغرب فمن ايطاليا أتى معماريو الكرملين ، وأتى منها كذلك ماكسيم المسمى بالاغريقي (ألباني الأصل) ، وهو تلميذ سافوناررول ، وعاد فاسيلي الثالث ليراجع الترجمات الروسية للنصوص المقدسة ، وكانت تلك مهمة خطرة ، أثارت احتجاجات رجال الدين وكلفت ماكسيم ان ينفى الى دير بعيد ، ولكن بعد أن ألقى بذور أفكار جديدة . حتى ان الستوكلاف نفسه ، وهو خلاصة في مائة بند . للقرارات اتخذها المجمع الذي دعا اليه ايفان الرابع عام ١٥٥١ والذي ضم مع ذلك خصوما من كل نوع ، قد اعترف بضرورة توسيع تعليم رجال الدين . وخشية ان يستغل

تشوه الكتب المقدسة على أيدي الناسخين الجهلة ، أسست في موسكو عام ١٥٥٣ أول مطبعة ، وخصصت للكنيسة . وان كثيرا من بنود الستوكلاف تدلنا على ماكان شائعا في ذلك العصر من جهل وتأخر ، وخرافات وأوهام . ومما هو أهم من ذلك لدراسة اخلاق ذلك العصر الكتاب المعروف بعنوان «Domostroi » الذي كان يسند الى الراهب سيلفستر ، مستشار ايفان الرابع الشاب (ويظهر ان «وصايا أب الى ابنه» المضافة الى النص هي وحدها بقلم سلفستر) ، ان هذا الكتاب هو عمدة من اراد ان يكون رب عائلة كاملا ، يعلمه كيف يقوم بواجباته الدينية ، وكيف يسوس زوجته واولاده ، وخدمه ، وكيف يقتصد في النفقات مع قيامه بواجبات الضيافة ، وكيف يهيء في بيته الثياب ، والبيرة ، ومئونة الشتاء ، لقد كانت الأسرة الغنية في ذلك الحين

تعيش حياة اقتصادية محدودة بغلال الارض وعمل العبيد ، وكان رب العائلة السيد المطلق في بيته بعد الله ، وكانت سلطته تعتمد على السوط ، وكان في وسعه بل من واجبه فيما ينصح به هذا الكتاب ، ان يستعمل السوط في سياسة امرأته ، شريطة ان لايكون ذلك على ملأ من الناس ، وكان من واجبه ان يعمد الى السوط في تأديب اولاده وخدمه فما ينقذ الارواح الا تعذيب الابدان . .

وثمة كتاب آخر ولد في هذا العصر نفسه ، وظل يحتل خلال قرون طويلة

مكانا كبيرا في الحياة الدينية الروسية ، اعني الكتاب المعروف بعنوان «Tchetii- Mine» وهو مجلد ضخم يضم نخبا كثيرة جمعها المطران ماكير عن حياة الأنبياء والرسل والقديسين اليونان والروس ، وكان يضم اليها آثارهم اذا سنحت الفرصة ، واضعا اياها في ايام اعيادهم ، وقد ضم الى ذلك كله مؤلفات دينية أخرى ، بل واضاف بعض قصص الحج . ان هذا الكتاب «مجموعة» كل الادب الديني المعروف في روسيا .

وابرز كاتب في عهد ايفان المرعب ، هو القيصر نفسه مافي ذلك شك . وتظهر شخصيته الحادة المعتدة ظهورا قويا في رسالة كتبها الى راهب دير القديس سيرسيل وفي رسالتين كتبهما الى الامير كورسكي الذي هرب الى بولونيا بعد ان عمل في خدمته ، ثم أخذ من هناك يكتب اليه رسائل حادة يلومه فيها على جرائمه ، فأخذ ايفان ، بدوره يكيل له السخر والشتم ، ويستشهد بآيات من التوراة على ان سلطته مستمدة من الله ، وان من حقه ان يتصرف برعاياه ان شاء أحياهم وان شاء اماتهم ثم يشعر بحاجة قوية الى تبرئة نفسه ، فتراه يعود الى مافيه ، يتذكر مالقي في طفولته من البوير من حرمان وعذاب وعار ، ومالقي من خيانات كان لابد له من ان يعاقب عليها اصحابها . انك حين تقرأ هاتين الرسالتين تحس انك امام وثيقة سيكولوجية من الطراز الاول ، وان الامير كوربسكي ، في رسائله وفي كتابه «تاريخ امير موسكو الأكبر (لقد كان يأبى ان يدعوه بالقيصر) يدرس ايضا تطور شخصية ايفان الرابع وتطور طبعه منذ البشائر اللامعة التي بدأ بها عهده الى ان جرت انهر الدماء في السنين الأخيرة . وانك حين تقرأ رسائل هذا الرجل المثقف بالنسبة الى عمره ، تلميذ ماكسيم الافريقي ، تحس انه يقدر حضارة البلد الذي لجأ اليه ، ولكنه يحتفظ مع ذلك بحنين قوي الى وطنه الحقيقي .

وبعد ذلك بقرن تقريبا ، ولكنه قرن مشحون بالاضطرابات ، اضطرابات الحروب الأهلية والخارجية قرن مشحون بالبؤس والشقاء ، قرن لم تستطع خلاله روسيا ان تسير خطوة واحدة في طريق التقدم ، ظهر كاتب آخر كتب من

المنفى أيضا . . هو كوتوشيكين ، الذي كان مستشار الشؤ ون الخارجية ، ثم اقام حينا في السويد .

ومن هناك رسم لنا ، في كتاب عن «روسيا في عهد الكسيس ميخائيلوفتش» لوحة قاتمة عن بلاط موسكو وصور في هذا البلاط اولئك البوير الجهلة المتغطرسين ، وصور ماكان يسود البلاط من اخلاق متأخرة ومشينة . كما ان كريجانتش القرباطي الذي جاء به الى روسيا حلم توحيد الكنائس والتقريب بين الشعوب السلافية ، والذي ارسل الى سيبريا يفكر في اوهامه الضائعة واحلامه المفقودة . . . قد كتب أيضا يشكو زمانه باللاتينية أحيانا ، وبمزيج من الروسية والقرواطية أحيانا أخرى يشكو جهل الموسكوفيين ، وغلاظتهم ، ويعلن انه مامن شيء يمكن ان يشفي هذا الداء الا السلطة المطلقة للقيصر .

والحق ان الكسيس ميخائيلوفتش ثاني اسرة رومانوف . قد بذل مجهودا لانتشال شعبه من التأخر . وقد استأنف في مجال الدين ، العمل الذي تصوره مكسيم الاغريقي ، وبتأثير البطريرك نيكون ذي النزعة الاستبدادية صححت الكتب المقدسة . كما عادت بعض الطقوس ، كذكر اسم المسيح والتصليب ، وغير ذلك الى اشكالها الاولى . الا ان الشعب الذي كان يخشى كل تبديل ، ويشتبه في اي تأثير اجنبي ، رأى في ذلك كله عملا شيطانيا . فتحطمت وحدة الكنيسة الروسية واضطهدت اشد العناصر تمسكا بمسيحيتها ، وتعرضت للذبح والهرب الى الغابات البعيدة وللانتحار الجماعي في بعض الأحيان وفي رأس أولى الضحايا الكاهن آفاكوم الذي حرق حيا عام ١٦٨٢ . وهو في سيرته التي كتبها عن نفسه يعلن قناعته القوية ، واستياءه من اصلاحات نيكون . ويروى قصة سفره الرهيب خلال سيبريا ، مع امرأته واطفاله ، ويصف المنفى ، وضروب العذاب التي لقيها بسبب ايمانه الراسخ بالتقاليد . ان «سيرة آفاكوم» المكتوبة بلغة شعبية بليغة عنيفة ، لهي اشد آثار الادب الروسي القديم تأثيرا في النفس ،

ولكن الماضي كان لابد له ان يخضع لضغط العصور الجديدة . فاستطاعت

بعض تأثيرات الغرب تترسخ من خلال جدار الشك وسوء الظن الذي كان يفصل روسيا عن الغرب . وهاهي موسكو تتلمذ على كييف ، موطن الانتقال كييف التي ارادت ان تدافع عن الارثوذكسية ضد الكاثوليكية البولونية ، فتسلحت بعين الاسلحة العقلية التي كان يتزود بها خصومها . فمن كييف انما يستدعي نيكون بعض الرهبان الذين يعرفون اليونانية لمراجعة الكتب المقدسة ، وتقليدا لأكاديمية كييف الاكليركية ، هذه الأكاديمية التي انشأها بطرس موجيلا عام ١٥٨٩ ، إنماتأسست في موسكو عام ١٢٨٣ مدرسة لم تلبث ان سميت باسم الاكاديمية السلافية اليونانية اللاتينية . ورغم ان نظرة الروس الى بولونيا والديانة الكاثوليكية كانت نظرة الحذر والريبة ، فان هاتين الاكاديميتين اخذتا تقلدان الكليات اليسوعية البولونية وتنافسانها ، وتضعان الادب مثلها ، موضع تكريم واحترام ، حتى ان سيميون البولوتسكي الذي يعلم في موسكو ويربي ابناء القيصر ، لم يكتب كتبا دينية فحسب ، بل نظم عددا كبيرا من القصائد الدينية والتعليمية ، على اوزان شبيهة بالاوزان البولونية (اي قائمة على اساس المقاطع) ومختلفة كل الاختلاف عن الشعر الشعبي الروسي القائم على اساس المد ولما كانت هاتان الأكاديميتان تقيمان ، على غرار اليسوعيين ، حفلات مسرحية تمثل فيها بعض الموضوعات الدينية ، فقد ألف سيميون البولوتسكي درامات عن «الابن المتلاف» وعن الشبان الثلاثة الذين رماهم نابختصر في الأتون .

ويشهد القيصر احدى هذه التمثيليات ، ثم مايلبث ان تغريه مشاهد اخرى .

وقد دخلت الثقافة الغربية عن طرق اخرى . لقد كان التجار الأجانب ، والالمان منهم بوجه خاص يزدادون في موسكو سنة بعد سنة ، وكان لهم في موسكو منذ عهد ايفان المرعب ، حي خاص بهم هو في سلوبودا . فكانوا يقيمون في حيهم هذا بعض الحفلات على طريقة بلادهم ، يعزفون بعض الموسيقى ، ويمثلون بعض القطع المسرحية ، وفي عام ١٦٧٣ أمر القيصر

الكسيس ، بمناسبة ميلاد ابنه بطرس ، امر القسيس ج . ج جريجوار ان تمثل في البلاط قطعة مستمدة من كتاب «استر» وان ينشأن لهذا الغرض بناء خاص وكان ذلك أول مسرح روسي ، وقد هيأ جرجوري تمثيل مسرحيات أخرى في هذا المسرح ، مسرحيات عن آدم وحواء ، وعن جوديث (ولم تحفظ من هذه المسرحيات الا الأخيرة) .

والى عودة الشعر والمسرح اضيفت بعد ذلك مودة الرواية .

وكما تأخر الشعر والمسرح في موسكو قرنين عن الغرب ، فكذلك كان الناس يقرأون في موسكو روايات الفروسية والمغامرات التي كانت قد أقل نجمها في البلدان الأخرى وكان القراء يتداولون هذه الروايات مخطوطة اذ لم تؤسس في روسيا مطبعة مستقلة عن الكنيسة الا بعد بطرس الأكبر ، وكان هذا الذي يتداوله الناس اقتباسا روايات اجنبية ، اقتباسا يحرف الأصل ليلائم بينه وبين ذوق الجمهور الذي يختلف كل الاختلاف عن الجمهور الذي شهد ولادة الأصل . وقد لقيت هذه الروايات نجاحا عظيما . ومالبث ان حضت المقلدين على تقليدها واجمل الروايات الروسية الاولى وأملؤها بالفكاهة قصة «فرول سكابييف» وهو مغامر لايعرف التردد ولا الوسواس يصل الى الحصول على الحب والثروة واحترام الجميع .

الفصل الثالث

القرن الثامن عشر

وهكذا كانت روسيا تجنح إلى «التأورب» (أي تصبح أوروبية) شيئاً بعد شيء ولكن هذا السير كاد يكون بطيئا لولا تلك الثورة التي فرضتها عبقرية أحد القياصرة لولا هذه القبضة القوية التي فتحت لروسيا نافذة على أوروبا ، وحطمت التقاليد والأحكام السابقة وضرب الحذر والشك وسوء الظن .

عهد بطرس الأول ـ إن ما كان يهم بطرس الأكبر هو أن يغير تكوين الدولة وأن تتدارك البلاد ما فاتها من تقدم تكنيكي سبقتها إليه الأمم الأخرى بقرون ، وأن يجعل روسيا قوية من الناحية العسكرية والبحرية والتجارية . وكان لا يهتم بالأدب كثيراً . إلا إنه مهدّ له السبل بتبسيط الأبجدية ، وتأسيس المطابع التي أصبحت تخرج كتباً تكنيكية بدلاً من الكتب الدينية . واغتنت اللغة بمفردات جديدة استهدت من الهولاندية أو الألمانية . وأسس اكاديمية العلوم وأنشأ مكتبة عامة . ولم يكن الأدب في أول الأمر إلا سلاحاً للجدل . فنرى يتوفن بروكد بوفتش ، مطران نوفجورود ، وهو أحد أعوان القيصر المخلصين له ينظم أشعاراً كسيميون البولوتسكي ويؤلف رواية دينية بعنوان «فيديمير ، ويدافع في خطبه خاصة ، دفاعاً قوياً غنياً عن اصلاحيات القيصر ، ويدل في كل ذلك على إنه واسع العقل رحب الصدر من الناحية الدينية ولعله

قد تأثر اذن ببعض آراء البرونستانتية . وفي المعسكر المقابل نسمع صوت ستيفان بافورسكي ، مطران رياران ، ينهض لمحاربة هذه التأثيرات البروتستانتية ، ويؤلف كتاب «حجر الأيمان» وهناك تأتشتشيف (١٦٨٦ - ١٧٥٠) صديق برو وبوفتش ، وقد شغل مناصب عالية ، وقام برحلات كثيرة إلى الخارج أطلع فيها على الفلسفة والاقتصاد السياسي ، وهو يوصي ابنه بدراسة هذه الموضوعات في «وصية» كتبها له ، وإنك لتحس في هذه الوصية نغمات من روح القرن الثامن عشر . وقد ألفّ كتاباً عن «تاريخ روسيا» في خمسة أجزاء ، وأراد عمداً أن لا يكمله ، من قبيل التبصر بالعواقب كما يقول ، بل توقف عند «عهد الاضطرابات» والكتاب قيم رائع ، يمتاز بوضوحه ، ومنطقه ، وحسن استعانة بالمصادر ، وقد فرغ صاحبه من تأليفه عام ١٧٣٩ . ولكنه لم يطبع إلا بعد موت المؤلف بمدة طويلة .

ومن بيئة اجتماعية تختلف عن تلك كل الاختلافات يأتي هذا الكتاب الطريف «من الفقر إلى الغنى» يوجهه إلى القيصر عام ١٧٢٤ فلاح عصامي علّم نفسه بنفسه ووصل إلى الغنى ، وهو من أشد المناصرين حماسة للتعليم والاصلاح ، وذلك هو ايفان موزوشكوف . ويجب أن نذكر ان حماسته هذه قد كلفته بعدموت بطرس ان اعتقل وسجن في قلعة مات فيها ، ويمكن أن نعتبره فلتة لم تتكرر بعد ذلك بمدة طويلة ، إذ ظلت الثقافة وقفاً على الطبقة الارستقراطية وحدها تقريبا . وهذه الطبقة ، العاجزة في جملتها عن اتباع الأفكار العظيمة التي آتى بها بطرس الأول والمعادية لاصلاحاته التي تهددها مباشرة لم تلبث مع ذلك ان تذوقت الأخلاق والمتع الآتية من الغرب ،وأصبحت لا تفكر في حرمان نفسها منها، وسرعان ما أصبحت معرفة لغة أجنبية شيئاً محبباً جميلاً . وكانت اللغة الألمانية في عهدبطرس الأكبر لغة حديث في بلاط القيصر ، ثم حلت محلها الفرنسية في بلاطمن اعقبوه من قياصرة وفي عهد اليزابت تم النصر لتأثير الثقافة الفرنسية .

عهد اليزابت ـ الآن تشهد روسيا «نهضة حقيقية» نهضة تشبه في كثير من

ملامحها النهضة التي عرفها الغرب قبل ذلك بمدة طويلة . وقد أدى تغير العادات والأخلاق إلى تغير في الأدب الذي ظل إلى ذلك الحين متجها إلى حياة الآخرة ، فأصبح الآن يتجه إلى حياة الأرض . وبهذا تغيرت اللغة نفسها ، وابتعدت عن السلافون وشحنت بمفردات أجنبية . وكان عليها أن تغتني وتصفو في الوقت نفسه ، أن عليها أن توجد نثراً وأن توجد أوزاناً شعرية . فكانت هذه المسائل تحتل المكان الأول من الأهتمام ، لأنها تحتل المكان الأول بين الضرورات الملحة السريعة . لذلك رأينا الكتاب جميعهم يبدأون بوضع نظريات . ولقد كانوا يشعرون بأنهم يساهمون ، في ميدانهم ، في العمل الذي شرع به بطرس الأكبر وأننا لنلاحظ في عصر التقليد هذا ، كبرياء قومية ورغبة جامحة في مساواة البلاد الأجنبية والتفوق عليها .

وتتجلى هذه العواطف فيما كتبه الأمير آنتيوش كانتمير ١٧٠٩ ـ ١٧٤٤) الذي لم يكن مع ذلك روسيا إلا بالتبني . إنه ابن أمير من مولد افيا ، وقد ناصر بطرس الأول ، وسافر بحكم منصبه الدبلوماسي إلى لندن وهو في ريعان شبابه ، ثم عين سفيراً في باريس ، حيث مات وكان لا يزال شاباً ولئن أقبل على دراسة علوم الغرب وآدابه اقبالاً نهما ، فانما لكي يخدم البلاد التي تبنته . وقد ألف ديواناً بعنوان «الأهاجي» ظهرت ترجمته الفرنسية أولاً عام ١٧٤٨ ، ولم يظهر بالروسية إلا عام ١٧٦٢ وفي هذا الديوان ، رغم إنه يذكرك بهوراس وتيوفراست وبوالد ولابروبير تراه يصف العادات الروسية وصفاً قوياً ، ويرسم لها لوحات عنيفة ، تحدثك ، عن المساوىء الروسية من جهل وخرافات وكبرياء بويرية حمقاء يريد اصلاحها . ويتألف البيت الشعري في قصائده من ثلاثة عشر مقطعاً ، وهو بيت ثقيل ، رغم ان مقاطع المد تتوزع فيه على اطراد ، كما أن أسلوبه الشعري أدنى إلى القدم من برقياته الدبلوماسية الشائقة جداً .

وانما يعود الفضل في الاصلاح العميق الذي تناول النظم الروسي الى اثنين

هما تريدياكوفسكي ولومونوزوف ، والى الأول بوجه خاص ، فبفضلهما اصبح بيت الشعر الروسي مقطعا ، قائما على تناوب مقاطع ممدودة ومقاطع ليست بذات مدّ . اما تريدياكوفسكي (١٧٠٣ ـ ١٧٦٩) فهو ابن كاهن من استرخان وقد هرب من الأكاديمية الاكليريكية بموسكو الى هولاندة وثم الى فرنسا ، ولما عاد اصبح استاذا في اكاديمية العلوم وكان انتاجه الادبي الغزير ، حتى اثناء حياته ، موضع هزء وسخرية ولاسيما ترجمته الثقيلة لكتاب (تلماك) في أبيات ثمانية وكتاباته النظرية أعلى من ذلك بكثير وفيها يعرض الكلاسيكية الفرنسية ويعرض نظرية جديدة في النظم . فمنذ عام ١٧٣٥ اصدرا دراسة بعنوان «طريقة جديدة وسريعة لنظم اشعار روسية» ، يناهض فيها النظم القائم على اساس المقاطع بالنظم القائم على اساس المدّ وفي عام ١٧٥٢ اعاد النظر في نظريته واغناها ، وذلك في دراسة بعنوان «طريقة لنظم اشعار روسية» وكان اثناء ذلك قد استفاد من امثلة منافسة لومونوزوف الذي كان هو الآخر صاحب نظريات في اللغة والنظم ، ولكنه كان يتمتع بموهبة شعرية حقا .

ان مواهب خارقة قد اجتمعت لشخصية ميشيل لومونوزوف (١٧١١ ـ ١٧٦٥) القوية ، وهو احسن من يمثل بسعة آفاقه هذه «النهضة الروسية» ولومونوزوف ابن فلاح صياد من جهات ارخانجلس ، شبّ في أحضان الطبيعة المتوحشة في الشمال وتعلم القراءة على ايدي بعض المؤمنين العجائز الذين لجؤوا الى تلك البقاع . وكان صاحبنا من شدة طمعه في التعلم ان هرب من بيت ابيه واستطاع الالتحاق بالاكاديمية السلافية اليونانية اللاتينية ، ثم استطاع ان يوفد الى ماربورج حيث درس على كريتيان وولف ثم الى فريبرج حيث برهن على قدرة عجيبة على العمل ، ثم عين استاذا في اكاديمية العلوم ، وكان هنالك على نزاع متصل مع زملائه الاجانب ، وكان يشتغل في الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم المعادن في آن واحد ، وتوصل في هذه الميادين كلها إلى اكتشافات هامة . وقد ألف أول كتاب من كتب النحو الروسية

نشرة عام ١٧٥٥ ، وهو في هذا الكتاب وفي كتاب آخر بعنوان «فائدة الكتب الكنيسية» يقرر ما بين السلافون والروسية من فرق في الاصل ، كما يعرض نظرية شائقة في اللغة الادبية وهو يفرق بين ثلاثة اساليب الاسلوب الراقي الذي تمثل فيه السلافون منزلة الصدارة ، والاسلوب المتوسط على تحاشيه الاسفاف ، يقترب من لغة المخاطبة ، ثم الأسلوب الدافىء الذي يقبل استعمال تعبيرات شعبية . وهذه الاساليب الثلاثة يناسب كل منها نوعا من الأنواع الادبية . ان هذه النظرية على شدة تحجرها تستند الى معرفة غريزية عميقة باللغة وما من شاعر الا طبقها على غير وعي منه .

وقد نظم لومونوزوف في جميع الانواع الشعرية ولكنه تفوق تفوقا خاصا في فن الأناشيد ذات الادوار . ولقد وضع نشاطه الشعري ونشاطه العلمي معاً في خدمة الدولة فكان الشاعر الرسمي لاليزابت . وفي اناشيده الدينية يمتزج الايمان العميق بحب للطبيعة التي كان يدرسها كعالم ، ويتأملها كشاعر فاذا رأى الشمس تشرق ، او اذا لفحت وجهه ريح الشمال عند الفجر ، اخذ يتأمل في عظمة الله .

ولكن طريقة لومونوزوف في الشعر ، قد شهدت حتى أثناء حياته ، شيئا من التمرد عليها ، لما فيها من اسراف في (الجلال والفخامة) . ان اليزابيت لاتشبه الا قليلا هذه الصورة التي رسمها لها شاعرنا كانها منيرفا ، لذلك كان رجال الحاشية يفضلون على اناشيد لومونوزوف ، شعر سوماروخوف لانه اقرب الى الخفة وروح العصر . وسوماروخوف هذا (١٧١٨ ـ ١٧٧٧) ارستقراطي نشأ في بيت نبيل ، ولكنه حبس حياته كلها على الأدب . وقد استعمل حتى في الاناشيد « Odn » والمآسي لغة الصالونات الهنية اللينة ، واحتدمت بينه وبين لومونوزوف مجادلات عنيفة ، واستطاع ان يجمع انصارا من الجيل الجديد يؤلفون من حوله مدرسة في الشعر جديدة . ولقد كتب في جميع الميادين ونجح في الاناشيد الرسمية ، ولكنه نجح اكثر من ذلك في القصائد الخفيفة الاناكرونية (نسبة الى الشاعر اناكرييون) ، واعجب به معاصروه كمؤلف

درامي بوجه خاص ، وكان هو نفسه لا يتردد في ان يضع نفسه في صف راسين وموليير في آن واحد .

وهذا هو العصر الذي نشأ فيه المسرح الشعبي . اذ كان تمثيل المسرحيات حتى ذلك الحين مقصورا على البلاد ، تقوم به في الغالب فرق اجنبية ، وفي المدارس ، وخاصة مدارس ابناء الامراء ، وقد كون فولكوف وهو ابن تاجر من ياروسلافل فرقة في مدينته استدعتها اليزابت الى بطرسبرج ، كما أسست عام ١٧٥٦ مسرحا عهدت بادارته الى سوماروخوف ، فكان سوماروخوف يغذيه بمؤلفاته . وكان يستعمل في مآسيه الكثيرة كل طرائق الكلاسيكية الفرنسية ، فيحيل التاريخيين الحفاة («خوريف» ١٧٤٧) والامراء الكبار الأول (مستسلاف) أبطالاً رقاق القلب على طريقة راسين وجميع هذه المسرحيات يكاد تستمد موضوعاتها من التاريخ الروسي وحده ، ومع ذلك فقد دخل شكسبير إلى المسرح الروسي بـ «هملت» لايمت بكبير صلة إلى «هملت» الأصلي . وكانت مسرحيات سوماروخوف الهزلية تأخذ عن موليير ، وتسرق مواقفه ، بل تأخذ حتى الأسماء التقليدية للكوميدي فرانسيز ، ولكنها تسخر أحيانا من المساوىء الروسية ، كسوء ائتمان الموظفين والخرافات ، وشدة الأعجاب بالفرنسيين .

عهد كاترين الثانية: في عهد كاترين الثانية ظلت روسيا واقفة عند المدرسة الكلاسيكية الفرنسية . وعلى ذلك الحين تعنى بالآداب الأخرى ، متبعة في هذا أيضاً خطى فرنسا فمن ألمانيا وسويسرا أتت إليها القصائد الغزلية القصيرة ، ومن انجلترا وفدت إليها عاطفية سترن ، ثم عاطفة يونح واوسيان ولم يرحل إليها الغرب أدبه فحسب ، بل أرسل فلسفة أيضاً ، وأخذت هذه الفلسفة تتنازع وتقاليد الأجداد ، حتى أخذ بعض الروس يقسون في الحكم على مؤسساتهم وولد يومئذ ما يسمى بالرأي العام .

ولقد كان لكاترين الثانية نصيب كبير في تحرير العقول هذا ، وإن اسفت على ذلك فيما بعد ، ما من حاكم احتل في حياة بلاده الفكرية ما احتلته كاترين

الثانية من مكان عظيم . إنها في «تعاليمها» التي وجهتها إلى اللجنة الموكل إليها تحضير قوانين جديدة ، لتبدو فيلسوفة من الطراز الأول ، وهي تستوحي في ذلك كتاب «روح القوانين» لمونتسكيو ، وإنما تحل محل الملكية المعتدلة حكماً استبدادياً نيراً . ولقد كتبت كذلك مسرحيات هزلية ، وأوبرات هزلية وحكايات أخلاقية ، وقصصا خرافية ، ومقالات للمجلات ، مدفوعة إلى هذه الميادين كلها برغبة قوية في تهذيب الشعب الذي أصبح شعبها ، وبأيمان صادق بأن هذا الشعب لن يقوده من هو خير منها . لذلك سرعان ما أصبحت تنظر بعين الخوف ، إلى هؤلاء الكتاب الذين منحتهم حرية واسعة ، فشجعهم ذلك على السير في طرق خطرة .

وأتت بعض المؤسسات ، كجامعة بطرسبرج ، قد أنشأت في منتصف القرن تقريبا بعض المجلات . وأولى المجلات التي أنشأها فرد هي المجلة التي أصدرها سومار وخوف عام ١٧٥٦ بعنوان «النحلة النشيطة» وكانت تنشر آثار أدبية ، روسية أو مترجمة . وعلى غرار سومار وخوف أنشأ خيراسكوف مجلة في موسكو إلا إنه لم يكن لهذه المجلات عدد كبير من القراء ، وكانت حياتها حياة عابرة . ولا شيء يدل على ما حققته روسيا من تقدم في الثقافة كالرواج الذي لقيته بعد ذلك بعشر سنين المجلات التي ظهرت في عهد كاترين أولى هذه المجلات اسميت «قليل من كل شيء» «Vsiakaia Vsiatchina» وقد أنشأتها الامبراطورة نفسها ، مستعيرة اسم أحد أمناء السرّ . وكانت تستلهم فيها مجلة سيكتاتور (تنتقد جهل الجيل القديم وخرافاته من جهة ، وتنتقد اندفاع الشبيبة في تقليد فرنسا من جهة أخرى) وكل ذلك في رفق ولين ، وفي ابتسامة متسامحة ، وكانت تنتقد الموظفين المتقاعسين الكسالى ولكن دون أن تتعرض للمؤسسات بسوء . ولم تكن تلك لهجة المجلات الأخرى التي تأسست على غرارها ، ولا سيما لهجة المجلة التي أصدرها نوفيكوف .

لقد كان نوفيكوف (١٧٤٤ ـ ١٨١٨) يتألم من نقص ثقافته الأولى ، فوقف كل ما أوتى من نشاط سخي ثرّ ، خلال حياته كلها ، على تعليم مواطنيه ، وفي

عام ١٧٦٩ أصدر مجلته «الدبور» ولم يقتصر على مهاجمة النقائص العرضية ، كسوء الاستعمال وما أشبه ذلك ، بل هاجم العيوب الدائمة العميقة في نظام الحكم نفسه وهاجم تلك الآفة الأساسية في البناء الاجتماعي للبلاد ، إلا وهي العبودية ، وصوّر بأقسى الألوان بوعى الفلاحين ، وطغيان السادة .

واحتجت كاترين ، في مجلتها الخاصة ، على تدخل الصحافيين في شؤ ون لاتهم غير الحكومة ، وبادر نوفيكوف فرد على هذا الاحتجاج رداً حاداً قاسياً ، ولكن كان من الطبيعي أن يغلب على أمره في صراع لا تتكافأ فيه القوى وتعطلت مجلة «الدبور» عن الصدور . وبعد ذلك بثلاث سنين عاد نوفيكوف إلى هذه الآراء نفسها في مجلة «المصور» التي كانت حياتها قصيرة كذلك . ولم يصدر بعد ذلك إلا مجلات تربوية ودراسات تاريخية ، وحين ترك بطرسبرج عام١٧٧٩ إلى موسكو، انصرف مع أصدقائهالأحرار الماسونيين ولاسيما ج . شوارتز ، الأستاذ في الجامعة ، وتلميذ يعقوب بوهمه وسان مارتان ، انصرف إلى انشاء مطابع حاو حاولت ان تسدّ النقص فيما يتعلق بالكتب التعليمية التي كانت تعوز روسيا . ولكن كاترين سرعان ماشتبهت، في أعمال الماسونيين بموسكو ، فظنت خطأ أن لهؤلاء الناس المثاليين علاقات بثوريي فرنسا فشردتهم عام ١٧٩٢ ، وحبست نوفيكوف في قلعة شلوسلبرج التي خرج منها محطماً حين اعتلى العرش بولس الأول .

وهناك رادشتسيت(١٧٤٩ ـ ١٨٠٢) ، وكان رجلاًثورياً في طبعه ودمائه . وكان أكثر ثقافة من نوفيكوف ، درس الحقوق والفلسفة في ليبزيج . وفي عام ١٧٩٠ استطاع ان ينشر بعد موافقة رقيب غافل ، كتابا بعنوان «رحلة من بطرسبرج إلى موسكو» ، وكان الكتاب يحتوي وراء هذا المظهر ، مظهر رحلة عاطفية على طريقة سرن كان يحتوي هجوماً على العبودية جريئاً ، ليس لجرأته من مثيل ، وقد صوّر قسوة هذه العبودية تصويراً حياً بسلسلة من لوحات رائعة آسرة ، ويحتوي الكتاب أيضاً هجوماً على الاتوقراسية ، وتلويحاً لها بثورة يقوم بها الشعب وتأتي على الأخضر واليابس .

وقد قرأت كاترين هذا الكتاب ، في انشداه وذهـول ، وذعـر ورعـب ، وحكم على رادنشتيف بالموت ثم خفف الحكم إلى النفي في سيبريا ، وعاد من منفاه بعد موت الأمبراطورة ، ثم لـم يلبث ان انتحر أما كتابه الذي أمكن ان تفلت بعض نسخه من الاتلاف ، فلم يظهر كاملاً إلا بعد مضي مائة عام على ذلك .

ان روح النقد التي شاعت في ذلك العصر تتجلى كذلك في المسرح ولكن في قصد واعتدال . فهي تندس في مآسي كنياجنين ، كما اندست في مآسي قدوته فولتير . ونرى كاترين الثانية تهاجم في مسرحياتها الهـزلية ، كما هاجمـت في مجلتهـا الاسراف في التعبـد («أيهـا الزمـان» ١٧٧٢) ، والاسراف في تقليد المودات الفرنسية وكثير من المسرحيات الهزلية تهاجم الماسونية ، وتهاجم هذا الميل إلى السرّ ، الأخـذ في التـزايد والسخـو ، «الخـادع» ، «المخـدوع» ، «الكاهن الشاماني» . وتعدّ مؤلفات نونفيزين أولى الروائع التي عرفها المسرح الروسي . نذكر منها «قائـد الفرقـة (١٧٨٢) ، و «القـاصر» (١٧٨٢)» أمـا المسرحية الأولى فيمكن ان لا تعتبرها أكثر من لوحة مسلية مضحـكة تصـور العادات الشائعة وتسخر من مساوىء الجيل القديم ومن افراط الشبيبة في التأثر بالفرنسيين . وأما الثانية فهي أثر قوي جبار يرينا المأساة المفجعـة من وراء المظاهر التي لا تستطيع ان تغالب ضحـكك حـين تشهدهـا (كما في أحسـن كوميديات موليير) وهي تصور تربية فتى ريفي من أنصاف النبلاء ويصور بيئة هذا الفتى ، ولا سيما أمه مدام بروستاكوفا ، وهي امرأة طاغية مستبدة بخدمها واسرتها ، طماعة ، منافقة ، سخيفة ، كادت تكون شيطانا عجيباً لولا حبها الأمويلابنها ، ويصور المؤلف في هذه المسرحية شخصية أخرى هي شخصية متروفانوشكا الغبي ، كما إنه يجري على لسان ستارو دوم آراءه الشخصية التي تفيض بالحكمة وحسن النظر وسلامة الذوق .

وقد شاعت أيضاً مودة الأوبرا الهزلية ، وأحسن آثارها مسرحية ابليزيعون بعنوان «الطّحان الساحر ، الخادع الكاذب» ، وإنك لترى العادات والأغاني

الشعبية تحتل فيها مكاناً كبيراً .

والشعراء ظلوا ينظمون في الفنون الشعرية الرصينة ، وهاهو خيراسكوف ، في «روسياد» المملة يتغنى على اقدام أساليب الملحمة الكلاسيكية باستيلاء ايفان الرابع على قازان ، ويتغنى في «فلاديمير» بتعمير روسيا . إلا أن ثمت معارضات شعرية هزلية وقصائد بطولية مضحكة تنبجس في هذا العصر نفسه ، من ذلك «ايليري أو باخوس الغاضب» لفاسيلي مايكوف ، وهي تمثل التظاهر بالبطولة على جبن . ومن ذلك هذه القطعة الرشيقة الحلوة التي وضعها بوجد انوفتش بعوان «دوشنكا» وهي تنقل «غراميات بسيشة» للافونتين في أشعار مرسلة . مع إضافة بعض الملامح الروسية وهناك أيضاً القصص الخرافية التي نظمها خمنتزر مستوحيا جلوت ، واودع فيها دروساً أخلاقية محبّبة .

وقد نظم خيراستوف ، وبتروف ، وغيرهما أيضاً ، قصائد تتغنى بالانتصارات ، إلا ان هناك شاعراً كبيراً قد جدد هذا الفن ، هو جبرائيل درجافين (١٧٤٣ ـ ١٨١٦) ، وهو من أسرة تترية الأصل ، كان أبوه ضابطاً فقيراً ، ولم يتح له أن ينال في طفولته شيئاً من التعليم ، وظل خلال مدة طويلة يعمل جندياً بسيطاً ، ثم رقّي ضابطاً في التاسعة والعشرين من عمره . وكأنما دفع في طريق مجهولة ، إلا أن أشعاره جعلت له حظوة لدى كاترين ، فعين محافظاً في الأقاليم ، فسكرتيراً شخصياً للامبراطورة ، فعضوا في مجلس الشيخ ، ثم عين في عهد الكسندر الأول وزيراً للعدل . ولكن طبعه الذي لا يعرف المسايرة ، ومبادئه التي لا يتنازل عنها ، لم تتح له أن يمكث مدة طويلة في أية وظيفة من هذه الوظائف . على ان قيمته الأدبية ظلت أمراً لا يجاري فيه أحد وكان الشاعر الرسمي للعهد ، فغنى أمجاده ، ولكن على نمط جديد فيه ظرف وبشاشة وألفة . وقد استعار من قصة لكاترين اسم فياستا فأطلقه عنواناً لقصيدة منح فيها الأمبراطورة لا على أنها الهة ، بل على أنها امرأة ذكية الفؤاد ، طيبة القلب ، وقارن بين مايزينها من بساطة ونشاط وتسامح

وبين ما يرى فيمن يحيطون بها من غطرسة ، وميوعة وكسل . ولشد ما سرّت كاترين بان وجدت نفسها في هذه الصورة الجميلة التي رسمها لها الشاعر .

وقد نظم شاعرنا قصائد ذات وحي ديني مثل «الله» الشلاّل» (وهذه الأخيرة أوحاها إليه موت بوتميكن) ، وهي شعر وصفي على طريقة بوب ودليل إلى رنين رثائي من صدى ارسيان ، وإلى غنى في الصور خاص هو ملك درجافين لم يستمده من أحد ، وإلى مناظر روسية أصيلة . أما حبه للطبيعة الروسية فيتجلى أكثر من ذلك في قصائده الاناكرييونية ، في قصيدة بعنوان «الحياة في زفانكا» مثلاً ، حيث يصف لنا الشاعر يوماً قضاه في الريف ، وان آثار درجافين لتتفاوت في قيمتها (قال عنها بوشكيين أن ثلاثة أرباعها من رصاص وربعها من ذهب) ، ولا سيا لغته ، فهي تتفاوت قوة وضعفاً ، فاذا قرأته وجدتك أمام عبارات مهمة تارة ، خاطئة تارة أخرى ، ولكنك تجد نفسك فجأة أمام بيت يبلغ من السموّ والرشاقة ما لا عهد به قبل درجافين ، لقد كان يعوزه لينعم به الجيل المقبل من سداد الحكم ونفاذه ، وما ستعبر عن الرومانطيقية من عمق الانفصال .

وإننا لنرى من هذه الرومانطيقية التي تنشأ في نهاية القرن في أوروبا كلها بعض العلاقات التي تسبق القافلة وتكشف عن الطريق . وأبرز هذه العلامات من غير شك ، ذلك الافتتان المتزايد بالماضي القومي ، على الجهل بتاريخه ، وذلك الافتتان بالشعر الشعبي ، على تحويره بما يلائم فروق العصر . وها هو تشولكوف ينشر فيا بين عامي ١٧٧٠ و ١٧٧٤ ، أي تقريبا في نفس الوقت الذي فعل فيه برسي مثل ذلك في انجلترا ، هاهو ينشر «مجموعة من الأغاني المتنوعة» ، سبقها (١٧٦٦ ـ ٦٨) بنشر «الساخر أو حكايات سلافية» وأعقبها بنشر «حكايات روسية» (١٧٨٠ ـ ٨٣) . إنهم يخلقون أساطير سلافية بأي شكل من الأشكال يجمعون نتفا من هنا ونتفا من هناك . ويحلمون بشعر سلافي بدائي . وفي هذه اللحظة تسعفهم العناية الألهية ، فيكتشفون ما اسمي «بمعركة ايجور» التي سبق الحديث عنها . . وفي عام ١٨٠٤ ظهرت أول مجموعة مما أسموه «القصص الحق» Bylines » .

والتيار الثاني الذي شهدته نهاية القرن الثامن عشر هذه قد أتى هو الآخر من الغرب ، مع روسون وسترن ، ويونج ، واوسيان ، وإنه ليلبي هو الآخر حاجة عميقة في الروح الروسية ، ويناسب غريزة من غرائزها اعني تغليب العاطفة على العقل . وقد دام تأثير روسو في روسيا أكثر مما دام في أي بلد آخر . حتى لتحسه في آثار تولستوي نحن الآن في عصر الصدامات العنيفة ، والحب الافلاطوني ، والتأمل فوق القبور . .

وقائد هذا الجيل الجديد هو كارامزين«١٧٦٦- ١٨٢٦» الذي نشأ في بيئة نوفيكوف وفي عام ١٧٩٠ قام برحلة طويلة إلى الخارج فذهب إلى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وانجلترا حيث ولدت «رسائل سائح روسي» وهي رسائل تحمل طابع شخصية ، رغم أنها تذكر بشترن . وفي ألمانيا التي يعدها بلاد الفكر والفضيلة قابل كنت وفيلاند وهردر ، أما جوته الذي رجع مع ذلك من ايطاليا فقد ظل بالنسبة إليه مؤلف «فرتر» وفي سويسرا ، بلد الشعر ، وقف على ضفاف نهر ليمان يحلم ، وفي يديه «هيلوئيزالجديدة» أمافرنسا ، بلد اللغو والثورة ، فقد شاقته أكثر مما جرؤ على التصريح بذلك ، ولكنه آثر عليها انجلترا الحساسة ، انجلترا سترن ديونج . وكان جمال الطبيعة ونماذج الفضيلة تستدر دموعه في كل من هذه البلدان . وإنك لترى هذه العاطفة نفسها ترين على شعره (وهو دون نثره) وترين على قصته ليز المسكينة (١٧٩٢) التي يصور فيها بساطة وصدق فتاة من الشعب ، ازاء مفاسد أهل الحضر . وكانت الرواية العاطفية قد ظهرت قبل ذلك الوقت بظهور رواية «رسائل ارنست ودورافرا» التي كتبها أمين (١٧٦٦) اقتباسا من «هيلوئيز الجديدة» ، ورواية «باميلا الروسية» التي كتبها لفوف (١٧٨٩) ، إلا أن قصة «ليز المسكينة» قد ضمنت الظفر للرواية العاطفية وما لبثت ان قلدها كثيرون .

وأن البساطة التي تتجلى في الفلاحين لتوجد أيضاً في الماضي وها هو كارامزين يحدثنا عن الفضائل الروسية القديمة في قصص تاريخيه مثل ناتاليا ، ابنة البويري ، (١٧٩٢) ، «ومارفا البوزادنستا» . ولقد كان من معالجة

القصص التاريخي ان أصبح بعد ذلك مؤرخاً يقف على التاريخ كل نشاطه .
وفي عام ١٨١٦ نشر الأجزاء الثمانية الأولى من كتابه «تاريخ الدولة الروسية» وظل يعمل في كتابه هذا المؤلف حتى وصل به إلى عهد أسرة رومانوف ، وهناك وافاه الموت . وهو في تاريخه هذا يجيد الانتفاع بأخبار الماضي ليرسم صورا حية براقة غرف منها الكتاب بعد ذلك ملء أيديهم مواضيع لدراماتهم ورواياتهم . والفكرة الرائدة في هذا الكتاب هي تمجيد الوحدة الروسية في ظل القياصرة الاوتوقراطيين حتى لقد أدت هذه الفكرة بكارامزين إلى التنكر لحماسته أيام الشباب ، وإلى أن يأخذ على بطرس الأكبر إنه حرف روسيا عن طريقها الصحيح .

وتتميز لغة كارامزين عن لغة سابقيه تميزاً واضحاً فهو يقطع الصلة بالسلافونية ، ويستعير من اللغات الأجنبية أو يشتق من أصول روسية الألفاظ التي تعوزه للتعبير عن معان جديدة كما إنه يسهل التراكيب ويبسطها ويرشقها فهو خالق اللغة الأدبية الحديثة . وقد تتبع خطاه جميع كتاب جيله تقريبا مثل دمتربيف في موالياته وقصائده الخرافية الجميلة ، وفاسيلي بوشكين في أشعاره الاباحية ، وكذلك كتاب الروايات و «الرملات العاطفية» . ومع ذلك فقد قامت حول هذا اعتراضات وا حتجاجات ، وهي اعتراضات يبررها ان اللغة كانت معرّضة لخطر فقدان أصالتها القومية ، إلا أن ممثلي المحافظة على القديم ، وكان على رأسهم الأميرال تشيخوف الذي دافع عن السلافونية في كتابه «في الأسلوب القديم والأسلوب الجديد» كانوا يقترحون لغة متكلفة مصطنعة ما كان للجمهور أن يفهمها ، وأن موهبة شعرية لخير من ألف حجة وبرهان للظفر بتأييد هذا الجمهور للاصلاح وذلك ما حققه مواهب شعراء الرومانطيقية الفتية .

* * * * *

الفصل الرابع

الرومانطيقيــــــــــــــــــــة

قبل بوشكين جميع الناس في روسيا شعراء ، في أول القرن التاسع عشر . فالطلاب في الجامعات والمدارس الثانوية ، والمدارس العسكرية ، مشغولون بنظم الشعر ، وبتأسيس النوادي الادبية ، واصدار المجلات والشعر يروى في جميع الصالونات ، وما مـن فتـاة الا وبـين اصابعهـا ديوان شعـر . وكانـت المناقشـات السياسية ممنوعـة ، فانصـب النـــاس على الأدب يتناقشـــون فيه ويختصمون . وصدرت مجلات كثيرة «رسول اوروبا» أنشأهـا كارامـزين ، و«ابن الوطـن» أنشأهـا جريتش (لغـاية سياسية في أول الأمـر ١٨١٢ ، ثم ما لبثت ان انقلبت مجلة (ادبية صرفة) ، ونجمة القطب «أنشأها ريلييف ، و «أزهار الشمال» أنشأها دلفيح ، و «المعاصر» أنشأها بوشكين . وكانـت هذه العجلات في اول امرها تنشر آثارا مترجمة كثيرة ، وازداد فيها بعد ذلك عدد الآثار المكتوبة بأقلام اصحابها ، ولـم تعن بالنقد عناية هامة الا بعد ذلك . فان «تلغراف موسكو» التي يصدرها بوليفوئي و «المنظار» التي يصدرها ناد جنين ستناقشان مبادىء الرومانطيقية ، بينما يأخذ فم بولجارين ، التقصي المأجـور الذي يتحلق السلطة يقطر سما في الكلام على عبقرية بوشكين . واذا استثنينا تلك الجماعة الصغيرة التي ستصدر مجلة «Mnemosyne» ، رأينـا ان فلسفـة الرومانطيقية الالمانية لم تكن معروفة على حقيقتها .

وكان الروس ، كأساتذتهم الفرنسيين ، يعجبون خاصة بـ «فرتر» و «قطاع القرق» وكانوا يعجبون بوالترسكوت وبيرون ، ويرون من الرومانطيقية وجهها العاطفي الجامع ، وجانبها الوصفي الملون ، ورائد هذا الاتجاه هو جوكوفسكي .

ان حياة جوكوفسكي (١٧٨٣ ـ ١٨٢٥) وآثاره تفيضان بنوع من العاطفة التي سبقت الرومانطيقية . وقد تعاونت ظروف شتى على القائد في التشاؤم منها ان أمه اسيرة تركية تزوجها ابوه البورجوازي وعاش معها حياة مشحونة بالمشاكل ، ومنها التربية التي تلقاها في مدرسة داخلية بموسكو كانت ما تزال تسيطر عليها الصوفية الماسونية ، ومنها موت صديق له عزيز عليه ، ومنها حب شقي شعر به نحو احدى بنات اخوته ودام مدة طويلة وانتهى بموت الفتاة ، كل ذلك ألقاه اذن الى التشاؤم ، وقد لازمه هذا التشاؤم طيلة حياته ، لم يفارقه في القصر حيث كان مربي الطفل الذي سيصبح الاسكندر الثاني ، ولافارقه في المانيا التي نفاه اليها زواج متأخر . وقد وافته الشهرة بفضل قصيدة تغنى فيها بالانتصارات الروسية عام١٨١٢ ، الا ان ميدانه الحقيقي هو ميدان الشعر الوجداني ، شعر النجوى الحميمة بين «بضعة افراد» شعر العاطفة ،

فهو يغني بأشعار شجية عذبة رخيمة ، الصداقة التي يختمها الموت ، والحب الذي ليس من امل ، وينتظر الموت الذي يلم شمل الأحبة ، ويجمعهم بعد فرقة ، فيجد في هذا الانتظار عزاء وسلوى . لم يعش شاعرنا هذا في الحاضر ، بل في الماضي يضفي عليه اجمل الصور ، وفي الحياة الاخرى التي ينتظرها ويصبو اليها . انه لا يعرف كيف يصف الواقع . ولا تزيد قصائده التي أثارت كثيرا من الاعجاب على ان تعكس عواطفه الخاصة في حلية من خيال وأوهام ، وقد ترجم الى الروسية ، في شعر ينقل موسيقى الاصل نقلا دقيقا موفقا كثيرا من القصائد الاجنبية فشاعت في روسيا وانتشرت انتشارا واسعا ، منها مراثي جراي فوق مقبرة في القرية ، ومنها «لونو» و «سجين شيون» وقصائد من ساوتي ، ودالترسكوت ، وجوته ، وعدد كبير من قصائد

شيلر خاصة ، وكذلك «عذراء اورلتان» ، واشعار من هيبل ، واوهلانـد ، واوندين لامـوت فوكيه (نقلهـا شعـرا) وقصائـد من روكرت وقـد قضى ايام شيخوخة هادئا يترجم ترجمة كاملة (وكان جنديتش قد ترجم قبل ذلك ، عام ١٨٢٩ ، الالياذة) ان صناعة تدين لجوكوفسكي بفضل كبير ، فقد استعمل اوزانا وابحرا وألحانا بلغت غاية التنوع ، وسيرثها من بعده بوشكين .

وعلى ان جوكوفسكي لا يتمتع بشيء من الصفات التـي يتمتـع بهـا رئيس مدرسة فقد التف حوله عام ١٨١٥ ، جميع تلاميذ كارامزين ليردّوا على هجوم تشيخـوف و «جماعـة محبـي الكلمـة الـروسية» فقـد ألف انصـار كارامـزين (جوكوفسكي ، فيازمسكي ، بلودوف ، وأوفاروف باتيذشكوف ، الكسندر ونيكولا تورجنيف ، بوشكين وابن اخيه الذي كان ما يزال طالبا في المدرسة الثانوية) جمعية تناوىء «جماعة محبي الكلمة الروسية» واستطاعت هذه الجمعية بما عمدت اليه من سخر فكه واستهزاء مرّان تجعل انصار السلوفونية الرجعيين اضحـوكة ومضغـة في الافـواه ، ولـم تكن هذه المجـادلات صراعـا بـين الكلاسيكية والرومانطيقية وانما كانت صراعا بين ما سيدعى بعد قليل بالروح السلافية والروح الغربية .

وكان شعراء المدرسة الفتية قد نشأوا على الكلاسيكية الفرنسية وتغذوا منها وتأثروا بها . وظـل طابعهـا يصبـغ اشعارهـم حتـى حـين دخلـوا في طريق الرومانطيقية . وهذا الطابع واضح في شعر جوكوفسكي ، وهو أوضـح من ذلك في شعر بافيوشكوف (١٧٨٧ ـ ١٨٥٥) الذي ترجم الشعـراء اللاتـين ترجمة رشيقة ، ولاسيا هورواس والذي كان شعـره الشـخصي يضـم صورا كلاسيكية ترين عليها كآبة رومانطيقية ، كآبة لا تعود الى مودة ادبية ، وانمـا تعبير صادق عن آلام هذا الشاعر الذي مات مجنونا وهذا المزيج من العاطفة والكلاسيكية يتجلى كذلك في مآسي (تراجيديات) أوزيروف «اوديب في اثينا» «فنجال» «دمتري دونسكوي» .

اما الملهاة (الكوميديا) المشهورة التي الفها جريبويدوف بعنوان «شقاء من كان اعقل مما يجب» فهي تصور بطلا رومانطيقيا في اطار كلاسيكي صرف ،

وقد اضفى المؤلف على البطل كثيرا من نفسه ، وقد ولـد جريبـويدوف عام ١٧٩٥ ، وهو ينتسب الى اسرة عريقة والى بيئـة موسـكو التـي يصورهـا في ملهاتـه . وقـد عمـل في الجنـدية ، ثم في السـلك الدبلومـاسي واوفـد الى القوقاس ، والى ايران وقد انهى ملهاته اثناء اجازة عام ١٨٢٣ ، ولـكن لم يسمح له بنشرها . وقد اشتبه في امره ، وظن ان له علاقات بالديسمبـريين فأوقف ، ثم اطلق سراحه ثم ارسل الى ايران مقيما ، وفي طهران عام ١٨٢٩ ، اغتاله جمهور متعصب ربما كانت انجلترا هي التي استأجرته ودفعته الى ذلك ، ان جريبويدوف انسان كئيب ، مظلم النفس محب العزلة ، وقداضطهدته بيئته بسرعة ، وآلمه الانتكاس الذي اعقب ما كان يعد به الاسكندر من حرية ، كما انه لم يكن من البساطة بحيث يشارك الديسمبريين اوهامهم ، وهو في ملهاته يعكس هذه الآلام التي تحز في نفسه ، وملهاتـه هذه هي جماع آثـاره ، اذا استثنينا بعض المحاولات الأخرى ، ويذكرنا بطلها ببطل قصة «مبغض البشر» الا ان بطلها تشاتسكي فتى اصغر من ألست وأكثر منه رومانطيقية يعود من رحلة طويلة ، وهو اشد ما يكون شوقا الى رؤ ية الفتاة التي يحبها والبلاد التي يحب ان يخدمها . فاذا هو يرى صوفيا (التي لا تشبه سيليمين ، فهي انسانة تافهة) قد افتتنت برجل بليد ، سخيف ، طمّاع ، ويرى البلاد تسيطر عليها «المحسـوبية» والخيانـة والجهـل والتفاهــة . وفي يوم واحــد يقضيه في بيت فاموزوف ، أبي صوفيا ، وهو رجل من كبار الموظفين تافه محتال يقسـو على مرؤ وسيه ويُذَل امام رؤ سائه وامام رأي سراة القوم ، أقول في يوم واحد يقضيه الفتى في هذا البيت يشهد كل المجتمع الموسكوفي الراقي الذي تملؤ ه الثرثرة ، والنميمة والتفاهة ، والقسوة على كل من يخرج على قوانينه ، فيعزم أمره على معاودة السفر ويسافر كما سافر أسست ، موقنا انه لن يجـد السعـادة في اي مكان . وان لشاعرنا لحماسة مرة حادة ملتهبة يجلد بها رذائل وسخافات هذه الطبقة الراقية جلدا قويا ، هذه الطبقة التي لا تعرف غير التصنيع ، والتكلف حتى في لغتها ، فهي تتحدث بمزيج مقرف من الفرنسية والروسية . ان هذه

الاشعار المرسلة الدقيقة الموجزة المصقولة الغنية بمزاوجات جديدة غير متوقعة ، القوية فيما تحمله من روح فكاهية ساخرة المنقوشة في ذاكرة كل روسي مثقف .

وان هذه القوة في ملاحظة الناس وصياغة الشعر لينعم بها كذلك شاعر آخر انصرف الى نظم قصص خرافية «Fables» ولكن ليس فيه شيء من رومانطيقية ، وليس في سخريته شيء من مرارة ، وهو الشاعر كريلوف (١٧٦٨ - ١٨٤٤) وقد قضى شاعرنا هذا طفولة فقيرة معذبة ، تعلم فيها من الشاعر اكثر مما تعلم من المدرسة ، وقضى شبابه يعمل ويكد ويضرب في الارض ويتنقل من مهنة الى مهنة ، ويغامر . وقد نالت كوسيدياته وقصائده القصصية الخرافية نجاحا واسعا ، فطبقت شهرته الآفاق ، وعينّ أخيرا أمينا للمكتبة الامبراطورية ، فقضى ايامة الأخيرة في حياة رخية مرفّهة ، وظل اسم هذا الانسان الطيب الخليع الذي يحب الحياة ويغرف من لذائذها من أشهر اسماء الادب الروسي . واحسن كوميدياته (مثل «مخزن المودات» ، «درس الى البنات») تهاجم عدوى الخفة الفرنسية ، كما كانت تفعل المجلات في عهد كاترين . وان الشعب الروسي ليحب قصائده القصصية الخرافية كما يحب الشعب الفرنسي لافونتين وبين الرجلين على كل حال شبه في بعض الصفات ، سداد الحكم وسلامة الذوق والطيب وموهبة الملاحظة ، وهو مثل لافونتين ، يعنى بالحكاية أكثر مما يعنى بالدرس الاخلاقي ولئن كان دون لافونتين رشاقة شعر (ولقد كان يستعمل الشعر المرسل هو الآخر) فانه أكثر منه حيوية ، كما ان لغته ادنى الى الشعب . وقد كانت خرافاته الاولى ، اقتباسا من خرافات لافونتين ، وبعد ذلك نظم خرافات شخصية اصيلة صور فيها جميع الطبقات الاجتماعية ، صور الفلاح الساذج أو المقتّر ، وصور البائع الغشاش وصور الموظف الذي لا ضمير له ، مثّله صغيرا بالثعلب ، ومثّله كبيرا بالفيل الحاكم الذي يسمح للذئاب ان تفرض على النعاج ضريبةقدرها جلدواحد عن كل نعجة ، جلد واحد لا أكثر ، وصوّر النبيل الفخور بأسلافه كافتخار الاوز بأسلافها ، وهذا هو الشاعر - الهزار يرى الحمقى يؤثرون عليه الديك ، لان

صوت الديك أقوى من صوته الرخيم وأكثر رنينا ، او هاهو الشاعر الهزار بين مخالب القط يؤمر ان يغرد ومابه الى التغريد ميل . ولاشك ان هذا النوع من الشعر القصصي هو الذي يتيح للشاعر مثل هذه الجسارة في الكلام ، وقد ارتفع في هذه الجسارة عام ١٨١٢ الى حيث حدثنا عن غيظ الذئب نابليون الذي ظن انه امام نعاج فاذا هو أمام كلاب ضارية ، ان ما تتمتع به هذه القصائد القصصية من ايجاز في السرد ، وحيوية في الحوار وعذوبة في اللغة التي تستعمل اقوالا وامثالا شعبية ، وتصل في الوقت نفسه عبارات تجري بعد ذلك مجرى الأقوال والأمثال ، كل ذلك جعلها أحسن آثار هذا النوع من الادب ولم يحاول أحد بعدها ان يضارعها .

بوشكين ـ ان جميع التيارات الشعرية في بدايةالقرن التاسع عشر هذا ،من ثقافة كلاسيكية ورومانطيقية ومن تأثيرات اجنبية وتقاليد قومية ، ومن احلام وواقعية جميع هذه التيارات قد صهرتها عبقرية بوشكين ، على انسجام وجمال . فكل ماقد سبقه ، وكل مايحيط به ، كأنما قد وجد ليهيء التربة التي سيتفتح فيها شعره ازهارا ليس لها من مثيل .

وانك لتلاحظ المفارقات حتى في اصلابه الذين انحدر منهم ، فمن جهة أبيه أسرة روسية قديمة ، ومن جهة امه جد حبشي جعله بطرس الاول قائدا ، واذا نظرت الى وجهه رأيت شعرا جعدا ، وشفتين غليظتين ورأيت في الوقت نفسه عينين زرقاوين وانفا أعنب مستقيما على ان ابويه كانا متناسبين ، يحب كلاهما اللغو والكلام بدرجة واحدة . وقد ولد شاعرنا الكسندر سرجييفتش بموسكو عام ١٧٩٩ ، وربي على يدي جدة عجوز ، ومربية « Niania » تعرف كثيرا من الحكايات الجميلة . الا انه كان يسمع الناس في صالون أمه يتحدثون عن الشعر ، وكان الأب والعم يقرضان الشعر ، وكانت مكتبة الاسرة تضم كل الشعر الخفيف الذي انجبه القرن الثامن عشر الفرنسي وكان الطفل يجيد الفرنسية وهو صبي في المهد ، فسرعان مأأخذ يقلد هؤلاء ، بالفرنسية طبعا .

وقبل عام ١٨١١ في المدرسة التي كان أنشأها الامبراطور الكسندر قريبا من

قصره في تساركو سيلو فلم يعن عناية جدية الا بالادب ، وكان يكثر من التنزه في الحديقة وقامت بينه وبين غيره صداقات قوية ونظم شعراً كثيراً اعترف بقيمته كثير من الشعراء الذين يكبرونه سنا ، عمه ، وجوكوفسكي ، وحتى درجافين .

وفي عام ١٨١٧ عين موظفا في الشؤون الخارجية ، وتمتع بملذات العاصمة ، ونظم اشعارا خفيفة وفي عام ١٨٢٠ نظم قصيدته الاولى «روسلان وليودميلا» وهي قصيدة بطولية هزلية على غرار ما عرفه القرن الثامن عشر من هذا النوع من الشعر ، الا ان قصيدة بوشكين جديدة بخيالها ، ومرحها ، وسحر لوحاتها ورشاقة اوزانها .

لكن لصاحبنا مشاغل اخرى اخطر من هذه ، فلئن لم ينتسب الى الجمعيات السرية ، فانه قد اتصل بالديسمبريين وهذه قصائد ملتهبة يتداولها الناس «القرية» «الحرية» ، وهاهي هذه القصائد تصل الى ايدي البوليس الامبراطوري ، وهاهو بوشكين يبعد كموظف الى كيشينيف ثم الى اوربا . وان السنوات التي قضاها في الجنوب قد اذكت موهبته واغنتها ، وكشفت له عن المرعى والجبل والبحر (لقد قام برحلة الى القوقاز والقرم) وأرته شعوبا متنوعة ، فكان من الطبيعي ان ترين عليه مسحة من حزن يقظ جدير ببطل بيروني ، وتجلى ذلك في سلسلة من القصائد «سجين القوقاز» ، «قطاع الطرق الأشقياء» (قطعة) ، «الفجر» وفي قصيدته «ينبوع باختش ساراي» ، وهي قصيدة رومانطيقية جدا كذلك ، يقص لنا قصة محزنة عن حريم القرم . وانك تجد هذه الذكريات الجنوبية الساحرة في أشعار أخرى جميلة مثل «الى البحر» . وفي قصائد اخرى يتغنى شاعرنا بحبه ، وقد نظم ايضا قصائد تدل على انها لم ينس آراءه ومعتقداته مثل «الخنجر» (تقليدا لشينيه) .

وقد أدى به استقلال طبعه ، وشذوذ سلوكه الى كرهه حاكم اوديسا وعاداه واستطاع ان يحصل على التخلص منه عام ١٨٢٤ . وارسل بوشكين بعد ذلك الى قرية ميخائيلو فسكوي التي تملكها اسرته ، ومكث فيها تحت رقابة البوليس .

وقضى هناك أكثر من سنتين وحيدا ، الا من عزاء مصادقة بعض النساء في مجاورة وفيما عدا ذلك لم يكن من رفيق في ليالي الشتاء الطويلة الا مربيته الامينة ، وآلهة الشعر . وان هذه العزلة في الريف الروسي قد انضجته وبدّلته . وهاهو الآن يؤثر على بيرون الذي لا يعرف «ان يصوّر الا نفسه» يؤثر عليه شكسبير وولتر سكوت ، وهاهو يؤثر على مناظر البلاد الغربية ، منظر غدير أو «أكمة رملية وشجرتي جميز بالقرب من عزبة» او منظر عربة تجري في السهل الابيض وترن اجراسها في وقع موسيقي عذب ، في ميخائيلو فسكوي انما أصبح بوشكين شاعر الأرض الروسية أو قل شاعر روسيا القومي .

وهاهو يحيي ماضي روسيا في درامته «بورمسي كاوونوف» ، وهي رواية تاريخية على طريقة شكسبير يخالف القواعد الكلاسيكية فيضم مشاهد لاحصر لتنوعها من حيث المكان والنوع والأسلوب . وتدور الرواية حول بطلين رئيسيين الأول : هو القيصر بوريس ، وهو سياسي حاذق وحاسم ، ولكن قوته قد اضناها تأنيب الضمير فانه ما حصل على العرش الا بقتل طفل ، والبطل الثاني هو دمتري الزائف الجديد ايضا بان يكون قيصرا ولكنه هو الآخر ينوء تحت حمل خطيئة هي الغش ، وحول البطلين ترى كل روسيا القديمة ، ترى الكرملين والبوير والصومعة وميادين القتال والمحلات العامة تضطرب فيها جماهير متغيرة لا تستقر على حال .

وهاهو يخصص لروسيا الحالية رواية شعرية عنوانها «أوجين أونيجين» بدأ نظمها حين كان في الجنوب وانجزها عام ١٨٣٠ ، ولكنها حملت معناها في ميخائيلو فسكوي . اوفيجين شاب خيبت الحياة آماله على ضحوة ، فأصبح ريّابا قاسيا ، ومضى يعيش في قرية روسية حياة كآبة وتشاؤم ، ويعرض له فتاة تحبه ويرفضها ، ويمضي على سبيل العبث يفسد سعادة صديق له ، وينتهي بقتل هذا الصديق في مبارزة قامت بين الاثنين . وبعد ذلك تتزوج الفتاة التي احتقرها فيهيم بها ، ولكنها تصده . انك لتشعر في أول الأمر ان المؤلف يكاد

يتحد بشخصية بطله ، متأثرا ببيرون ، ولكنه سرعان ما يدين بطله ، ويتجه بتعاطفه الى تاتيانا ، الفتاة الروسية الحقة ، التي تربت تربية افرنسية ، ولكنها مع ذلك قريبة من الشعب «الروسي بروحها دون ان تعرف لماذا» ، ان النشيد الاول من هذه القصيدة يرسم لنا يوما من حياة غندور من بطرسبرج والاناشيد التالية تسير بنا الى الريف ، فتصور لنا اصدق جوانب الطبيعة الروسية ، وتصور لنا عادات الزمان السالف التي ما زالت منازل الضيافة في بيوت النبلاء تحتفظ بها صافية قوية ويصور لنا الخرافات الشعبية التي تشارك تاتيانا في الاعتقاد بها ، ان هذه الرواية الشعرية هي أول رواية واقعية في الادب الروسي ، وهي في الوقت نفسه احفل قصائد الادب الروسي بالموسيقى .

وهكذا اكتشف بوشكين الروح القومية أثناء عزلته ولكنه ، وكان في منأى عن الحركات الفكرية وحين اعتلى نيكولا العرش غفر له ، واتى به الى موسكو ووعده ان يكون الرقيب الوحيد عليه في المستقبل الا ان الوعد كان خداعا ، وظل الشاعر طيلة حياته تكدره اضطهادات الكونت بنكندروف الذي كان يشتبه في كل سطر يخرج من قلم بوشكين . وزادت وطأة الحياة على كاهله بعد زواجه عام ١٨٣١ من الفاتنة ناتاليا جوفتشاروفا التي فرضت عليه حياة اجتماعية تخالف ذوقه ولا تتفق مع ميوله واضطر حتى تستطيع امرأته ان تظهر في البلاط ان يقبل عملاً «Kammerj umhen» . وهو عمل مضحك بالنسبة الى من كان في مثل سنه ، ومثل قيمته . وكان في كل خريف ينزوي في أرض له ببولدنيو ، حتى يستطيع ان يعمل . وهناك كتب روائع آثاره .

وتستوحي هذه الروائع ، منذ ميخائيلوفسكوي ، بنوعين من ينابيع الالهام ، روسيا الماضي ، والحياة الروسية الحالية . وقد ازداد شغف بوشكين بالتاريخ شيئا بعد شيء وعنى خاصة بدراسة بطرس الأكبر فجمع وثائق كثيرة عن عهده ، وتغنى بانتصاراته الحربية ، وظفره على شارل الثاني عشر ومايزبا في بولتافا (١٨٢٨) ، وفي «الفارس البرونزي» يقارن بين الارادة الجبارة التي يتمع بها باني العظمة الروسية وبين الرغبات الانسانية الوضيعة التي تجنح الى

السعادة وراحة البال . وهو يحدثنا عن بطرس الأكبر أيضا في روايته النثرية التي لم ينجزها والتي يحيي فيها ذكر جده الحبشي ، وعنوانها «زنجي بطرس الأكبر» الا ان هناك شخصية كبيرة اخرى تختلف عن شخصية بطرس الأكبر كل الاختلاف ، تستهويه كذلك هي شخصية بوكاتشيف ولعل هذا ان يرجع الى ان في نفسه تمردا خفيا مختبئا . وهاهو يدرس على الفور ، تاريخ ثورة بوجاتشيف ويخصص لها قصته «ابنة الكابتن» وهي قصة تعد مثلا اعلى في جمال الايجاز ، والانطلاق الطبيعي وغنى الصور والألوان .

ومع هذه الأثار التي تحدث فيها بوشكين عن الماضي الروسي ، كتب سلسلة من الآثار الشعرية والنثرية عن حاضر روسيا ، فهناك قصائد قصيرة فكاهية وواقعية مثل «الكونت نولين» و «منزل كولومنا الصغير» ، وهناك عدد من القصص . وانه في ابرز قصصه التي جمعها عام ١٨٣٠ بعنوان «قصص بيلكين» يفوق جوجول في تصويره لحياة صغار الناس ، وفي قصته «طلقة نار» يرينا وجه رجل قاتم النفس متجه الى الانتقام اتجاها عنيفا ، وهو يشبه شخصية قاطع الطريق دروبروفسكي (بطل قصة لم تتم) ويشبه كذلك شخصية هرمان في قصته «La Damecle Dique» وهذا المقامر الذي تلازمه فكرة ثابتة ، كانه شخصية من شخصيات دوستويفسكي . ان الحوادث في هذه القصص سريعة ، مركزة في مشاهد محكمة السبك ، واللغة دقيقة ، بسيطة ، رشيقة .

على ان الآثار التي يظهر فيها بوشكين اقرب ما يكوت الى الروح الروسية انما هي حكاياته الشعرية اللطيفة ان موضوعات هذه الحكايات جميعها (ماعدا واحدا) مقتبس من خارج روسيا ، الا ان الشاعر قد جعلها روسية ، اذ حكاها كما يحكي الشعب ، وعبارات الشعب . ما من شاعر حاول ان ينظم شعرا شعبيا على هذا النحو الا أحسست فيه التصنع ، الا بوشكين .

ان الشعر الغنائي الذي نظمه بوشكين متنوع في شكله ومادته تنوعا لا حدّ له . فلغته الصافية دائما تستعمل جميع موارد الروسية ، من السلافونية

الفخمة ، الى لغة الصالونات المألوفة ، الى عبارات الفلاحين العذبة ، وليس بوشكين مجددا في الاوزان إلالأنه استعمل جميع الاوزان التي استعملها سابقوه ، وادخل فيها موسيقى جديدة ، موسيقى رصينة تارة ، وتارة راقصة كأغنية ، وان شعره يصور جميع جوانب الطبيعة الروسية الرائعة منها والمألوفة . وهو يغنى الحب الباسم المشرق ، كما يغني الحب الباكي الحزين . الا انه في السنين الأخيرة يعبر في الغالب عن كآبة فيها تسليم واذعان ، وعن صبوة الى الهدوء ، وتفكير في الموت ، ومع ان بوشكين قد نظم في شبابه اشعارا تحريرية ، فانه لا يتصور الشعر سلاحا من اسلحة النضال وانما يريد له ان يحلق طليقا فوق خصومات النهار ، وان يرتفع جماله بالنفس منزها عن الغرض ، فالشاعر كاهن ليس عليه ان يمسك بالمكنسة ويأخذ بتنظيف الشوارع . ان الشاعر هو «النبي» الذي ظهر له الملاك في الصحراء .

ومتى حقق الشاعر رسالة الجمال التي عليه ان يحققها ، فليست تفيد بعد ذلك احكام «العامة» وهو لا يقصد «بالعامة» افراد الشعب ، فهؤلاء يملكون غريزة الجمال ، وانما يعني هذه النفوس السخيفة الطماعة الثرثارة السطحية التي تلقاها في الطبقة العليا من المجتمع . الا ان هذه «العامة» قد جعلت الشاعر يدفع ثمن احتقاره اياها غاليا جدا ، فهاهي تغضب عليه ، وتدبر له مكيدة دنيئة قاسية ، تستغل مرح امرأته البريء لتجرحه بغمزات وقحة ورسائل مغفلة ، وهاهو يضطر ذات يوم ان يتحدى افرنسيا هو بارون آنتس وان يطلبه الى المبارزة ، فيطعنه هذا في يوم / ٢٧/ يناير من عام ١٨٧٣ طعنة قاتلة ويلفظ انفاسه بعد يومين عانى خلالهما آلاما مبرحة تحملها برجولة . وظل بوشكين الميت مشبوها كبوشكين الحي فتحت جنح الليل انما نقل جثمانه الى الكنيسة ثم الى دير الجبل المقدس الذي يرقد فيه الآن ، قريبا من ميخائيلوفسكوي .

رومانطيقيون أخر ـ حول بوشكين ، أكبر الشعراء الروسيين غير منازع ، كان هناك عدد من الشعراء حجبهم ظله ، وكان في وسعهم ان يكونوا شيئا

مذكورا لو اتـوا قبـل ذلك بجيل واحـد . نذكر منهـم الأمـير فيازمسـكي ، والبارون يندكتوف زميل بوشكين في دراسته الثانوية ، ولازيكوف ، وهؤلاء يمتازون بالعناية بالأسلوب ، فكانت لغتهم رشيقـة أنيقـة ، وهنـاك شعـراء الديسبريين الذين كانوا يرون ان للشعر رسالة اخطـر من ذلك نذكر منهـم كوشلبيكر ، وهو كذلك رفيق بوشكين ، وقد نفي الى سيبيريا ، وريسليف احد زعماء البعث وقد شنق ١٨٢٦ ، وهو في التاسعة عشرة من عمره وكان قويّ التعبير عن معتقداته ، الا ان ديوانه «يعوزه التنوع وغنى الصور وكان يقول هو نفسه انه «مواطن» أكثر مما هو شاعر ، وهناك فنفيشينوف ، وقد مات في الثانية والعشرين من عمره ، وكان مولعا بالفلسفة الالمانية .

وهناك ايضا باراتنسكي (١٨٠٠ ـ ١٨٤٤) الـذي ظل مجهـول القـدر مدة طويلة ، وهو شاعر كبير هو احد قلائل الشعراء الفلاسفة من الروس . وقد ارتكب في شبابه خطيئة كان لها تأثير ثقيل في حياته وفي تطور طبعه . وقد أرسل الى فنلندا جنديا عاديا (وقد كشف للشعر الروسي عن جمال مناظر فنلندا فى قصيدته «ايدا»)، ولكن حتى حين اشرقت حياته بزواج سعيد ، ظل يلازمه التشاؤم ، وفي هذا التشاؤم تلمح تأثير الفلسفة الالمانية ، لكنك تلمح قبل كل شيء صدقا عميقا فهو يحدثنا عن مضيعة الجهد الانساني ويصف لنا الأيام تنتهي لتبدأ لتنتهي الى غير جدوى ويحدثنا عن التوق الى العدم . وليس شاعرنا هذا ممن يسهل فهمهم فينالون شهرة بين عامة الناس ، انه صعب الفهم ، سواء من ناحية الاسلوب ومـن ناحية الافـكار . وهنـاك بوليجـاييف ، وان مصيره ليشبه مصير باراتنسكي ، الا ان هذا المصير قد انتهى على نحو أفجع ، انتهى بالادمان والمرض ، وكان جوابه على آلامه صرخات ثورة وحنق وتمرد . الا انه نظم كذلك اغاني للجنود ، عليها طابع شعبي (كما فعل قبل ذلك عام ١٨١٢) ، الشاعر المناصر دافيدوف وقد انتشر في تلك الفتـرة تقليد الشعـر الشعبي . ولكن آثار كولتزوف (١٨٠٨ ـ ١٨٤٢) شيء آخر غير التقليد ، هو رجل من الشعب كان يعمل مع ابيه منذ نعومة اظفاره في تجارة الماشية ، فقام

باسفار طويلة في فيافي روسيا ، وتعلّم بجهده الشخصي ثم اتصل بعد ذلك بالاوساط الادبية ، فازداد عندئذ شعوره بقساوة الحياة في بيئته التي شب فيها . . وقد نظم قصائد كثيرة عنى فيها افراح الفلاحين وآلامهم واعمالهم واعيادهم وغرامياتهم . . بكلام بسيط والحان جميلة .

وان الشاعر الرومانطيقي الحقيقي في روسيا انما هو لرمونتوف ذلك ان بوشكين لا يمكن ان يحشر في اطار الرومانطيقية انه رومانطيقي في طبعه ، رومانطيقي في حياته . ولد ميشيل بوريفتش لرمونتوف في موسكو عام ١٨١٤ ، وعاش حياة حزينة بلا أم تحنو عليه ، وكان مرهف الشعور ، شديد الاحساس ، وذاق كثيرا من الآلام من اتصاله برفاقه في المدرسة الداخلية التي تضم أبناء النبلاء ، وفي الجامعة ، وفي المدرسة العسكرية التي تهيأ فيها ، بعد كثير من الشرود للحياة العسكرية ، ولم يلبث ان التجأ الى الشعر يجد فيه سلواه . وقد اثار فيه موت بوشكين استياءاً شديداً وألما عميقا ، واخذ ينظم قصائد نارية يفضح فيها الاوساط الارستقراطية التي قتلت الشاعر بوشكين .

وقد نال بذلك غضب السلطة ، فأرسل الى القوقاز ، وهناك لم تزده الذرى العالية الا احتقارا لصالونات بطرسبرج حين عاد اليها . وانه ليجرأ باحتقاره لايخفيه ، وتكثر اعداؤه تبعا لذلك ، ويبارز خصومه ، وهاهو يبعد مرة أخرى الى القوقاز ، ويشترك في معارك يروى قصتها في قصيدته «فاليريك» وفي بيا ايجورسك يلتقي برفيق له قديم رفيق سخيف مختال ، فما يزال الشاعر يصب سخره واستهزاءه حتى جره ذلك الى المبارزة ، فيقع لرمونتوف قتيلا عند سفح الجبل ، وهو في السابعة والعشرين من عمره عام ١٨٤١ .

وإن هذه الحياة القصيرة قد تركت لنا آثاراً كثيرة ، غارقة جميعها في حزن مرّ ، وأسى عميق ، ويرجع ذلك الى أن شاعرنا كان قاتماً بطبعه ، أضف إلى ذلك بعض ما لاقى من خيبة الظن أبان مراهقته ، وقد قوى ذلك كله عنده ، بتأثير موجة الكآبة التي رانت على ذلك العصر . وكان الشاعر المتألم يجد نفسه في كل

ما كان يقرأ من شعر ، وجدها في قصائد بوشكين التي نظمها إبان شبابه ، ووجدها لدى الرومانطيقيين الفرنسيين الذين كان يحبهم ويقدرهم ، خلافاً لبوشكين ، ووجدها لدى هايني ، ولكن خاصة لدى بيرون فقد اكتشف ، على رعب وذعر ، أن بينه وبينه قرابة تبلغ من القوة أنه لايستطيع حين يعبّر عن عواطفه إلا أن يبدو بيرونياً . إن قصائده الغنائية تفوح يأساً وضجراً قاتلاً . وإنه لاينقم على الله ، كما فعل باراتنسكي أو فييني ، وإنما ينقم على البشر ، على هؤلاء البشر الذين يبهدلون كل شيء عظيم . إنه يكره البشر ويحب العزلة ، ويفزع إلى الطبيعة ، وهو يفزع إلى الطبيعة لا لأنه يجد فيها صديقاً ، بل لأن جمالها ينتزعه من نفسه وقد اعجب خاصة بمناظر القوقاز الفخمة ، إنه يتخيل محاور رائعة بين جبل البروز وجبل كازيك ويحدثنا عن سعي نهر تريك محجوماً إلى بحر قزوين حاملاً إليه جثمان صبية قوقازية جميلة ، ويصف لنا تلك المضائق الوحشية التي يقوم فيها قصر «تامارا» ، الملكة التي تغني في الليل ، فتجتذب المسافرين إلى اللذة والموت . وإنه ليشعر أنه أقرب إلى هؤلاء السكان الجبليين الأباة منه إلى المتحضرين فهو مثلهم يشعر في أعماق قلبه بحاجة وحشية إلى الحرية . وإنه ليحدثنا في «المترهّب الحدث»عن آلام طفل قوقازي أسره الروس وربّوه في أحد الأديرة ، إن الطفل ليهرب من الدير ، ولكنه يضل الجبل ، ثم يقبضون عليه ويعيدونه إلى الدير ، ونسمعه وهو يحتضر مايزال يصرخ معلناً حبه للحرية إن روحه روح طليقة لايمكن أن تضبط أو تحد .

وفي مثل هذا الانطلاق كذلك روح «الشيطان» الذي حاول أن يجد الأمن في حب فتاة جورجية يظل يلاحقها برؤ ى مخفية حتى في الدير الذي التجأت إليه واعتصمت به ، وتموت الفتاة من هذا الحب إلا أن الملائكة تحمل روحها ، كما في فاوست . إن موضوع هذه القصيدة الذي بدأه لرمونتوف مبكراً ، وأعاد كتابته خمس مرات ، آخرها بين عام ١٨٣٨ وعام ١٨٤٠ ، خليق بأن يذكر كثيراً ببيرون وغوته وفييني ، إلا أنك تنسى ذلك حين تقرأ القصيدة فترى هذه

الأوصاف المشرقة ، وتسمع هذا الرنين الجامح الذي تستشف وراءه روحاً معذبة تتوق عبثاً إلى التحرر مما يكمن فيها من شر وعذاب .

ولشاعرنا قصائد اخرى من وحي آخر ، نذكر منها هذا الأثر الرائع القصير «اغنيته» القيصر ايفان فاسيلييفتش ، والشاب الاوبرتشنيكي والتاجر الماهر كالاشنيكوف ، وفيه يصور لنا ذلك العهد القاسي ، عهد القيصر المرعب ، كما تتخيله التقاليد الشعبية ، مستعملا تعابير القصص الحق ، مؤديا روحه .

وله ايضا درامة بعنوان «البال المقنع» ، وضع فيها كثيرا من نفسه ، كما فعل في المترهب الحدث وفي «الشيطان» ، ان الشخصية الاساسية في هذه الدرامة تذكر بتشاتسكي وعطيل ، وتبرز في صورة فاجعية وسط بيئة حقيرة تافهة . واننا لنتعرف كثيرا من جوانب شخصية الشاعر نفسه في كتابه «بطل عصرنا» ، رغم انه حاول ان ينكر ذلك . لقد جمع لرمونتوف في هذا الكتاب خمس قصص نثرية (١٨٤٠) ثلاث منها وهي ابرزها ، تصور لنا في ظروف مختلفة شخصية بتشورين ، الشخص الذي قسا قلبه مثل اونيجين ، ولكن نفسه اظلم من نفس اونيجين ، وأكثر بيرونية ، انه مليء بالتناقض ، وانه ليعرض هو نفسه هذا التناقض ويحلله ، لقد خابت احلام صباه ، احلام الحب والمجد . فأصبح انانيا يحب السيطرة ، ويستطيع ان يوقع الأذى في الناس ، على هدوء وبرود ، ولكنه يفيض أيضا حبا جامحا وعذابا ممضا . انه لايشعر بالارتواء لحظة واحدة ، فلا حب فتاة قوقازية ساذجة رقيقة يرويه ، ولاحب نساء من بيئته ، نساء مخلصات هنّ أيضا لايشفين غليله . وهناك في هذه القصص شخصيات ثانوية مثل الدكتور فرنر وهو شخص فاجر والضابط ماكسيم ماكسيمتش وهو انسان طيب وهناك اشخاص جيليون وقد بلغ لرمونتوف من قوة التصوير وعمق التحليل في رسم هذه الشخصيات مايبرهن على أنه يستطيع ان يخرج من نفسه ، وان يكون روائيا موضوعيا من الطراز الأول . ولو عاش أكثر مما عاش ، فلعله كان يتطور في هذا الاتجاه ويسلك سبيل الرواية ، كما فعل من قبله بوشكين .

وإذا استثنينا بوشكين ولرمونتوف ، استطعنا ان نقول ان النثر الروسي ، وهو

متأخر عن الشعر تأخرا واضحا ، لم ينتج في العصر الرومانطيقي أي أثر أصيل جديد بما في الاصالة والجدة من معنى . ولقد اثرت فلسفة شلنج وفاكرودر ، وحكايات هوفمان ، وروايات جان بول ، في الأمير فلاديمير اودويفسكي الذي ألف قصصا مليئة بالخيال والسخرية السوداوية . إلا أن والتر سكوت كان من الأجانب أكثر حظا من تقليد الروس ، فهاهي الروايات التاريخية تظهر بكثرة بأقلام عدد من الكتاب نذكر منهم الديسمبري بستوجيف الذي كان يكتب باسم مستعار هو مارلنسكي ، وزاجوسكين ولاجتشنيكوف ، وغيرهم . وهناك ايضا الأكراني فارجني الذي يمتاز بجمال التصوير وقوة الفكاهة ، ولقد كان له بعض التأثير في جوجول . إلا أن توجيه الرواية الروسية وفي طريق الواقعية نهائيا كان ينتظر جوجول .

الفصل
الخامس

التيارات الفكريـــــــة الكبرى

لانريد هنا أن نؤ رخ الفكر الروسي . إلا أنه لابد مع ذلك من الاشارة الى التيارات الفكرية الكبرى التي اثرت في الادب أكثر من أي بلد آخـر ، لأن الكاتب الروسي يكاد يستهدف دائما غاية أقرب الى الفائدة المباشرة من الجمال وحده .

إن اليقظة الفكرية التي أدى اليها في مستهل القرن اتصال الشباب الضباط بالغرب عن طريق الانتصارات التي احرزها الكسندر ، والتي مضت بهؤ لاء الشباب حتى باريز ، قد أدت الى ثورة ديسمبر عام ١٨٢٥ . فلما أخفقت هذه المحاولة اتضح جليا أنه لابد من تهيئة فكرية ، لابد من مذهب أو عقيدة . وفي تلك الفترة ، في عهد نيكولا الأول ، انما ظهر الطالب الروسي ، كما ستصوره لنا الرواية كثيرا ، الطالب الروسي الذي يحاول في المتيافيزياء أو في السياسة ، ليالي طوالا ، بين لفائف التبغ واقداح الشاي . ومن المانيا أتـت الفلسفة ، إن الحماسة لشلنج الذي لم يكن له مذهب سياسي لم تلبـث أن خلّت مكانها لعبادة هيجل .

وماحصل في ألمانيا حصل أيضا في روسيا ، فبعض النـاس رأوا في فلسفـة هيجل تبريرا لما هو قائم من اوضاع أي تبريرا للاوتوقراطية ، وبعضهم الآخر رأى في فلسفة هيجل نقطة البداية لنظريات اشتراكية كل على حسب ميوله .

إلا أن روسيا لابد أن تستمد من هذه الفلسفة تطبيقات خاصة بها ، لقد كان لها في الماضي تطور خاص ، وسيكون لها في المستقبل مصير خاص . وهانحن مرة أخرى امام المسألة التي ظن بطرس الأول انه حلّها ، هل ينبغي لروسيا أن تتعلم من اوروبا لتفوقها بعد ذلك ، ام يجب عليها أن لاتستمد شيئا من غير تراثها القومي ؟ ان هذه المسألة تشطر الروسيين الى جبهتين ، جبهة انصار الغرب وجبهة انصار السلافية وكلتا الجبهتين تستوحي في آرائها محبة الوطن بدرجة واحدة .

أنصار الغرب - في عام١٨٣٦ ظهر في مجلة«المنظار» مقال بعنوان«رسالة فلسفية» وهذا المقال قد أقام الناس واقعدهم ، وعدّ صاحبه مجنونا ووضع تحت الرقابة الطبية عدة سنين . صاحب هذه المقال ارستقراطي متوحد يدعى تشادايف (١٧٩٤ -١٨٥٦) . ومذهبه الذي فصل القول فيه بعد ذلك في «رسائل فلسفية» اخرى كتبها باللغة الفرنسية وظلت مدة طويلة دون نشر ، يذهب إلى أن تأخر روسيا عن ركب الحضارة مرده الى أنها قد اخذت ثقافتها ولاسيا ديانتها من بيزانطة ، وبذلك ظلت بعيدة عن كل ماكان يتم في الغرب من امور عظيمة ، وهو يرى ان الوسيلة الوحيدة للخلاص انما هي الأخذ بالكاثوليكية والسير في الطريق التي سارت فيها الأمم الأخرى . وبهذا الثمن وحده تستطيع روسيا أن تلحق بالامم الأخرى ، بل وان تتفوق عليها ، وأن تجد حلول المشاكل التي تمضها وتقض مضجعها .

إن تشادايف هو ، قبل فلاديمير سولوفييف ، الكاتب الوحيد الذي طرح مشكلة التقارب مع الغرب في ميدان الدين . أما الآخرون من أنصار الغرب فكانوا يطلبون من الغرب مذاهب اجتماعية وسياسية . أما الناقد الادبي الكبير بلنسكي (١٨١١ -٤٨) الذي يعد سانت بوف روسيا فهو كاتب ناري عنيف جذبته الهيجلية الرجعية في أول الأمر ، ثم انتقل فجأة الى المعسكر الآخر . وكان فقيرا وكان مريضا قد هدّه السل ، وكان يجهد نفسه في العمل في الصحافة ليكسب قوته أولا (اشتغل في «المنظار» بموسكو اولا ثم ببطرسبرج

بعد عام ١٨٣٩ ، ثم اشتغل في «حوليات الوطن» ثم في «المعاصر» ، وليدافع عن معتقداته قبل كل شيء . وكان يرى أن رسالة الأدب هي أولا اذاعة الافكار الكريمة التي تأتي من الغرب ، وثانيا التشهير بالمفاسد التي تعيّر روسيا . وكان عدوا لمذهب الفن للفن ، ومع ذلك فقد كان يعبد بوشكين ، لأن بوشكين قد تحول عن المثالية الرومانطيقية الى الواقعية .

ولقد اشتعل حماسه «لبعض روايات جوجول مثل «النفوس الميتة» ، وأعتبرها أقوى فقد تناول المساوىء الروسية حتى الان ، ولكنه امتلأ بعد ذلك استياء حين اكتشف في جوجول الرجعي الصوفي وقد استبشر خيرا بتورجنيف ودوستويفسكي وأعجب بما أوتيا من موهبة ، وكان ينتظر منهما آثارا واقعية عظيمة . وقد ظلت هذه المبادىء هي مبادىء النقد بعد بلنسكي . وهاهو تشرينشفسكي (١٨٢٨ ـ٨٩) الذي اختار موضوعا لرسالته (أطروحته) «العلاقات الجمالية بين الفن والواقع» ، يرى انه لايعد الأثر الفني جميلا مالم يكن نقلا امينا عن الواقع ، وبذلك يشير هذا الكاتب الى طريق الاصلاح وهاهو دوبروليوبوف (١٨٣٦ ـ٦١) الذي خلف تشرينشفسكي ناقدا في مجلة «المعاصر» يرى إن الفن الصرف ليس إلا تسلية لغنية عاطفية ، ولايرى ان للادب رسالة غير الدعاية ، وانه على ضوء هذا المبدأ انما يدلي بأحكامه على تورجنيف ، وجونتشاروف ، واوستروفسكي . وان بيزاريف (١٨٤١ ـ٦٨) ليمضي الى ابعد من ذلك أيضا ، انه يتعوذ بالرحمن من أذى الفن ، ويتوق الى يوم لايبقى للفن فيه من ضرورة . ولقد كان القصد سجن تشرينشفسكي عامين وهناك انما كتب روايته «مالعمل ؟» ، وارسل الى مناجم روسيا يقضي فيها سبعة اعوام اخر ، وحبس بيزاريف اربعة اعوام في قلعة بطرس دبولس ، واخطر هرزن ان يسافر الى الخارج ليعبر عن آرائه بحرية .

ولد هرزن عام ١٨١٢ ومات بباريز عام ١٨٧٠ ، وهو ابن سفاح من سريّ روسي وامرأة المانية . درس في موسكو العلوم وفلسفة هيجل وسان سيمون ، ولم يكد يوظّف حتى اعتقل ونفي الى فياتكا . ولما عاد الى موسكو كتب باسم

مستعار هو اسكندر مقالات كثيرة ، وقصة هاجم فيها العبودية بعنوان «الغراب السارق» ، وفي عام ١٨٤٦ كتب رواية «من المخطيء ؟» ، وفيها يحارب الرومانطيقية ، ويسفّه هذه الانانية التي تبحث عن السعادة في الحب . وفي عام ١٨٤٧ سافر هرزن الى الخارج ، ولكنه قد خاب ظنه عندما رأى ان ثورة ٤٨ لم تبدل شيئا في النظام الاجتماعي وان العقلية البورجوازية الصغيرة مازالت تسيطر في برلين وباريس ولندن . عندئذ من بعيد ، وضع أمله مرة أخرى في روسيا التي ليس فيها طبقة بورجوازية والتي تحقق منذ الان شيئا من الاشتراكية بالملكية الفلاحية المشتركة فكان ينادي : لتقفز روسيا قفزة قوية ، ولتقطع المراحل التي أبطأت سير الغرب ، ولتكن في ذلك قدوة للعالم ومثالا . وكانت مجلة هرزن التي كان يطبعها في لندن واسمها «الأجراس» ، تدخل الى روسيا خفية حتى لقد كانت تصل الى مكتب الامبراطور . ولم تكن الكتب التي كان ينشرها تحت عنوان «ماض وآراء» والتي كانت تجمع بين الذكريات والنظريات والتي ظلت ممنوعة حتى عام ١٩١٧ ، بأقل تأثيرا من مجلة «الاجراس» ، إن هرزن من اول المناضلين المحرّضين الذي وجهوا الفكر الروسي من بعيد . ولكن كان هناك من فاقوه في ذلك من عدميين أو ثوريين ، مثل باكونين الذي كان يدعو الى ثورة شعبية على الفور .

أنصار السلافية ـ اما المعسكر الآخر ، معسكر أنصار السلافية ، فبين رجاله أيضا نفوس كريمة يجب أن لا نفعل مافعله خصومها فنحشرها في زمرة الرجعيين الذين ليس لهم من مثل أعلى . إن دعاة السلافية هؤلاء يرجون ، هم ايضا ، تحقيق الاصلاحات ، ولاسيما الغاء الرق ، إلا أنهم يريدون أن تتحقق هذه الاصلاحات بروح روسية صرفة ، ولا تقليدا للشعوب الأخرى . فليس الرق نظاما من انظمة روسيا القديمة ، وقد برهنت روسيا القديمة هذه على روح اشتراكية ، بوجود نظام الملكية الفلاحية المشتركة «Lemir» (نلاحظ أن كلا المعسكرين معجب بهذا النظام) . وفي موسكو ، التي هي أقل تأوربا من العاصمة الجديدة ، انما يظهر المذهب السلافي ، على

لسان ونستانتان وايفان اكزاكوف ، ايفان وبطرس كيريبفسكي وألكسيس خومياكوف (١٨٠٤ ـ ١٨٦٠) ، ان هؤلاء جميعا متعلقون بالديانة الأرتوذكسية . ولكنهم مع ذلك يشعرون بما فيها من نقص ، ربما بتأثير البروتستانتية ، ويريدون ان ينعشوها ويحيوها . وهم يأخذون على الكاثوليكية انها تعتمد كثيرا على التفكير الاستدلالي ، ويرون الكنيسة الشرقية تضمن للصوفيين حرية داخلية اعظم ، ويرون أن الاوتوقراسية هي الأخرى تحمي الحرية الحقيقية ، فالقيصر اذ يأخذ على عاتقه مهمة الحكم ، يدع لرعاياه فرصة الانصراف الي الحياة العائلية وحياة الفكر والروح ، غير أن هذا لايكمل إلا اذا كان الحاكم نفسه كاملا ، وذلك مايصعب ان نتصوره متحققا في روسيا ابان عهد نيكولا الاول . وقد ازداد قلق خومياكوف يوم وقعت حرب القرم ، فتساءل : هل تعجز روسيا عن تحقيق الرسالة التي عهدت بها اليها السماء ؟ ومالبث أن أجاب : ينبغي لروسيا أن تعمل حتى تصبح جديرة بحمل هذه الرسالة ، يجب أن تتخلص من الاصلاحات الفاسدة التي تحققت في عهد بطرس الأكبر ، وان تعود الى التقاليد القوية وان تلغي العبودية ، وان تقوى نظام «المير» وان تعيد تنظيم القضاء والادارة . واننا لنرى اذن ان برنامج دعاة السلافية في هذه النقاط لا يقل جرأة عن برنامج هرزن . لذلك لم تلبث الحكومة ان اشتبهت فيهم ، فعطّلت مجلتهم «ديوان موسكو» (ثلاثة اعداد متباعدة ، ١٨٤٦ ـ ٤٧ ـ ٥١) ، واصطنعت لها مذهبا استمدت شعاره منهم ، الارتوذكسية الاوتوقراسية ، الروح القومية ، ولكن بعد ان افرغته من كل مثالية سمحة كريمة . وجعلته شعارا للرجعية . واشتدت الرقابة ، واصبح كل كاتب مشبوها مبدئيا . ولكن هيهات للاضطهادات ان توقف يوما سير الأفكار . . .

الشعبيون والماركسيون ـ ألغيت العبوديةاخيرا ، ولكن الاصلاحات السياسية المنتظرة لم تعقب هذا الاصلاح الاجتماعي ، وهذا الاصلاح الاجتماعي نفسه كان ناقصا ، وظل الفلاحون في ظروف اقتصادية قاسية .

وتشهد روسيا عندئذ وثبة قوية تدفع بالمثقفين ان يمضوا الى الشعب «لينتشلوه من بؤسه وجهله وتعقب» العدمية الهدامة «شعبية» كريمة بناءة ظامئة الى العمل المنتج الخصب . إلا أن الآراء تنضم فيما يتعلق بالطريق الى ذلك ، فهل نبدأ بتعليم الجماهير اولا وقبل كل شيء كما يدعو الى ذلك لافروف («رسائل تاريخية») ، ام ندفعه الى الثورة دون انتظار أو تمهّل ، كما يذهب الى ذلك باكونين ، أم نقوم ، دون الاعتماد على الجماهير بل ورغم هذه الجماهير اذا اقتضى الأمر ، بالثورة التي سيستفيد منها الجماهير ، كما يذهب الى ذلك تشاتشيف ؟ (وهؤلاء الثلاثة كانوا جميعا يكتبون طبعا من خارج البلاد) وبينما كان كثير من الشباب والشابات ينتشرون في القرى ليعلموا الفلاحين (وسرعان ماكان يعتقلهم رجال البوليس) ، كان غيرهم من الشباب والشابات ينظمون الجمعيات الارهابية ، وكان آخرون يتتلمذون على المذهب الماركسي الذي كان بليخانوف وأكسلرود وبعد ذلك لينين ، حملته . ثم تتطور الصناعة في البلاد وتنمو الرأسمالية ، وتظهر الطبقة العمالية التي لم يكن لها من وجود تقريبا قبل ذلك وهذه الطبقة يسهل تعليمها وتكتيلها أكثر من طبقة الفلاحين ، كل ذلك يغير البنيان الاجتماعي للبلاد ، ويوجه الاشتراكية اتجاها جديدا يسير به لينين الى النصر عام ١٩١٧ .

الفلاسفةالدينيون ـ لم تستطع المسائل السياسيةوالاجتماعية ان تحقق في روسيا الاهتمام بالمسائل الدينية . وهذه المسائل الدينية هي اساس اثار تولستوي ودوستويفسكي ، على اختلاف في الاتجاهات كبير . وهي تتجه اتجاها سلافيا قويا على لسان كونستانتان ليونتيف (١٨٣١ ـ٩١) الذي دعا قبل دخوله الى الدير في مقالاته عن (الشرق وروسيا والسلافية «الى قيام اوتوقراسية عامة تكون روسيا على رأسها) وعلى عكس ذلك كان سولوفييف يتمنى الاتحاد مع روما . ولقدكان لتفكير فلاديمير سولوفييف(١٨٥٣ ـ١٩٠٠) وهو أكبر فيلسوف روسي واول فيلسوف روسي عني بالمسائل المتيافيزياثية لا الاجتماعية تأثير كبير لا في الفلاسفة فحسب ، أمثال شستوف وبردييف ، ولوسكي ، بل

في الشعراء أيضا (ولقد كان شاعرا هو نفسه) ، وذلك اذ فتح لهم ، ازاء المادية المنتصرة ، أبواب السر ، والمجهول ، واذ علّمهم ان لايروا في العالم الخارجي الا رمز الحقيقة الخالدة ، وان يبحثوا عن هذه الحقيقة الخالدة بالاستدلالي الفعلي ، بل بالحدس والايمان . وهناك فاسيلي روزانوف (١٨٥٦ ـ١٩١٩) ، وهو ديني على طريقته الخاصة ، بدأ بالاراء السلافية وانتهى منها الى كره الاخلاق المسيحية وتمجيد الجسد تمجيدا صوفيا . وقد حاول ميرجكوفسكي ان يوفق ، على الجملة بين سولوفييف بين المسيحية والياجانية .

اننا سنجد هذه التيارات الفكرية كلها في أدب القرن التاسع عشر والقرن العشرين ولاسيما في الرواية .

الفصل السادس

الرواية في القرن التاسـع عشر

لقد كان بوشكين ولرمونتوف روائيين بارعين ، إلا أن الخالق الحقيقي للرواية الروسية انما هو جوجول .

جوجول ـ ولد نيكولا جوجول في سوروتشينتز بأكرانياعام ١٨٠٩ ، وكان ابوه يعنى بالتقاليد المحلية ، حتى لقد كتب باللغة الاكرانية كوميديات استفاد منها الابن فيما بعد . وقد قضى جوجول طفولة سعيدة ، وتلقى دراساته بمدرسة عادية في ينجين ، واشتهر هناك خاصة بمقدرته على التمثيل وموهبته في ذلك . واذا نظرت الى هذا الفتى الجنوبي طالعك منه وجه ضيق ، وأنف اعنب حاد ، وعينان قويتان نافذتان ، وقد سافر عام ١٨٢٨ الى بطرسبرج ، وفي قلبه طمع جامح ، لا طمع في المجد الادبي فحسب ، فقد كان يحلم بان يكون شيئا مذكورا في حياة بلاده . وكان ككثير من الأكرانيين ساخرا حالما في آن واحد ، خياليا وواقعيا معا ، قد اوتى موهبة الملاحظة والتقليد ، إلا أنه على خلاف اترابه ، فهو منطو على نفسه ، شديد الهياج ، على غير استسلام للعاطفية ، ولن يكون في حياته نساء ، ولن ترى في رواية صورة حية لأمرأة ، اللهم إلا لبعض العجائز . وكان مؤمنا ، بل كان صوفيا في ايمانه ، حتى لقد كتب الى امه مبكرا ان الله قد يسرّه الى اعمال عظيمة . وماكان للمنصب الهينّ

الذي تهيأ له ان يرضيه وان يروي ظمأه الى المجد . وانه ليحلم في ان يعمل في التمثيل ثم هاهو يبدأ في الأدب بقصيدة بعنوان «هانس كوشلجارتن» ، يقلد فيها فوس ، إلا أنه مايلبث أن يحطمها بعد أول مقال نقدي تناولها . ويهرب جوجول الى خارج البلاد ، ومايكاد يصل الى لدبك حتى يقفل راجعا . وفي ذلك الوقت انما بدا له ، بتأثير ماتلقاه الاساطير الشعبية والالوان المحلية ولاسيما كل ماهو اكراني من نجاح بدا له ان يكتب في هذا اللون من الأدب ، فكتب «سهرات في المزرعة قرب ديكانكا» (١٨٣١ -٣٢) ، وقد اوصله هذا الكتاب فجأة الى مجد ادبي كان قد يئس منه ، وأتاح له الوصول الى الاوساط الادبية ، وجذب اليه استحسان بوشكين وصداقته .

ولعل أوصافه لأكرانيا لم تكن دقيقة كل الدقة ، فلقد اضاف الى ذكريات طفولته شيئا كثيرا مما يحفظ من حكايات هوفمان ، إلا أن في كتابه هذا حياة طافحة فيّاضة ، وفكاهة رشيقة يمازجها خيال واسع ، على عذوبة وحلاوة ، وانه ليصل في كتابه «سون سورو تشينتز» الى ذروة الفكاهة ، فكاهة تغرقك في الضحك فلا تستطيع الى مغالبته سبيلا ، وتحس في ذلك كله ان الكاتب بارع في رسم كاريكاتور واقعي ، وفي رسم لوحات رومانطيقية جميلة ، ان اعوزتها التفاصيل ، فلا تعوزها الصور الغنية والروح الغنائية . وقد شجّعه مالقي من

نجاح ، فقام برحلة الى أكرانيا ينعش بها ذكرياته ، ويعود منها بأفكار جديدة لمجموعة جديدة بعنوان «مرحورود» ، ولقصص أخرى . ويظل العنصر الخيالي غالبا في قصته «فيئي» إلا أن الواقعية راجحة في قصته الفكهة «كيف ارتبك ايفان ايفانوفتش مع ايفان نيكيفوروفتش» على روح ساخرة بارعة ، اما في قصته «الملاكون في الزمان السالف الجميل» فان هذه السخرية تصطبغ بلون عاطفي ، ان الحياة العادية التي تعيشها الاسرة القديمة لتفوح شذى عاطفيا عميقا . أما «تاراس بوليان» فهي تصور الماضي البطولي لأكرانيا . في صفحات رومانطيقية جدا ، ليست صحيحة كل الصحة من الناحية التاريخية ، إلا أنها

تفيض حياة والوانا واوصافا زاهية للمراعي المزهرة والمعسكر الزابوروجيين .

وان هذه الجولة التي قام بها جوجول في الماضي أوهمته انه خلق ليكون مؤرخا ، فطلب ان يعينّ استاذا للتاريخ في جامعة بطرسبرج ، واجيب الى طلبه دون أن تكون له أية ثقافة سابقة في هذا الميدان . وقد اخفق في هذا العمل اخفاقا ذريعا كان له صداه بين الناس ، وعاد الى الأدب . وأخذ عندئذ يطبّق في وصف حياة بطرسبرج الاساليب التي ضمنت له النجاح في وصف الحياة الأكرانية ، ولكن لما كانت حياة العاصمة لاتحوي كثيرا من الشعر ، فقد زاد نصيب الواقعية في مؤلفاته التي يصف فيها حياة بطرسبرج ، وهذا ماتلاحظه في «نفسكي» و«يوميات مجنون» وخاصة في قصته «المعطف» وهي قصة موظف بسيط سرق منذ الليلة الأولى معطفه الجديد الذي اشتراه بعد أن حلم به طويلا ، وقتّر على نفسه اشد التقتير ليوفر ثمنه . وليس يهمنا المخرج الخيالي من عقدة هذه القصة بعد تلك الصفحات الرائعة التي تصور الحياة اليومية لهذا الشيخ المسكين ، وهي صفحات جعلت دوستويفسكي يقول ان الرواية الروسية قد خرجت من «معطف» جوجول . ان فيها رفة عميقة من الشفقة ، من الرحمة التي تؤذن بدوستويفسكي . فاسمع الى الموظف الشاب يقول لنفسه فجأة ، بينما كان الناس من حوله يبهدلون أكاكي اكاكييفتش ، يقول : «ان هذا الانسان هو أخي» .

وإن ما أوتية جوجول من قوة الملاحظة ، وروح الفكاهة ، وحيوية الحوار كانت تؤهله لأن يكون كاتباً مسرحياً من الطراز الأول ، إلا أن نجاح مسرحيته «Revison» (التي سنتحدث عنها في الفصل التالي) قد اربكه ووضعه في موقف حرج ، فقد استاء منها الرجعيون ، وتحمس لها التقدميون وأخذ هو يدافع عن نفسه صادقاً بأنه لم يشأ أن ينتقد نظم بلاده ، ولكن ذلك لم يجده شيئاً . ولكي يهرب من الضجة التي أثيرت حول مسرحيته ، ولكي يستطيع أن يعمل في هدوء ، وكذلك تلبية لهذه الحاجة القوية إلى السفر ، هذه الحاجة التي القت به ذات يوم في المركب الذاهب إلى لدبك ، ترك جوجول روسيا عام

١٨٣٦ ، ليعيش حياة متشردة في المانيا وفرنسا التي كره فيها تحرريتها الملحدة ، وفي ايطاليا التي احب شمسها وأحب الجوّ الديني الذي يشيع في عاصمتها روما ، وكان رفيق طريقه في كل حال ذلك الكتاب الذي بدأه عام ١٨٣٥ ، وهو أعظم آثار حياته ، اعتى «النفوس الميتة» التي قال هو عنها أن تاريخها هو تاريخ نفسه . الجزء الأول من هذا الأثر عام ١٨٤٢ بهذا العنوان «مغامرات تشتشيكوف أو النفوس الميتة «قصيدة ، وهو قصة محتال يتخيل أن يشتري» «النفوس الميتة» أي العبيد الذين ماتوا بعد آخر تعداد والذين ما زال اصحابهم يدفعون ضريبة عنهم . أن هؤلاء ليفرحون بأن يتنازلوا للمحتال عن سنوات امتلاكهم لاولئك العبيد الذين ماتوا ، وذلك لقاء ثمن بخس وهو يستفيد من هذه السنوات بعد ذلك باقتراض مبالغ من المال من البنوك على أساس رهن هذه السنوات . وإنه في تجارته هذه ليطوف في القرى على عربته الصغيرة التي سرعان ما أصبحت عربة اسطوانية . وصاحبنا المحتال هذا ليس بالعجوز ولا هو بالشاب ، رجل سمين ، شديد العناية بالنظافة ، قوى الشهوة إلى الطعام ذو مزاج باسم باش ، يعرف كيف يضحك لكلمة طيبة يقولها فلاح ، ويعرف كيف يظهر في صالون الحاكم على غير ارتباك أو استحياء ، أنه يوحي بالثقة ، وما من أحد يحاول أن يعرف شيئاً عن أصله واسرته ، والقارىء نفسه لا يعرف أن اخلاق اسرته مشكوك فيها إلا في نهاية الكتاب . ولكنك لتتساءل : هل هذا الرجل على الجملة ، أقل شرفاً من أولئك الموظفين في المدن الصغيرة ؟ ومن أولئك الملاكين في القرى ، أعني من أولئك الناس الذين كان يعقد معهم صفقاته التجارية المنحطة ؟ وثمت طائفة من الشخصيات في هذه الرواية لا تنسى ، شخصية الجنتلمان الكسول ، العاطفي المسترخي استرخاء عذبا ، ثم شخصية الجار القاسي الخشن الذي يدافع عن مصالحه بعنف وحدة ، ثم المرأة العجوز الغبية المكارة في آن واحد ،ثم شخصية المتلاف الغشاش الذي يحب المسايغة ، ثم شخصية البخيل الخسيس إلى درجة مفجعة . وإن صاحبنا تشتشيكوف ليعامل كلاً من

هؤلاء الناس على حسب طبعه ، فطرائقة في مداورتهم تختلف باختلاف كل منهم ، وترى الحديث الذي يدور بينه وبينهم جديداً في كل مرة ، تحس له في كل مرة مذاقاً جديداً إلا أن أحداً من هؤلاء لا يستطيع بوثبة من الشرف أن يرفض العرض المربح المشبوه الذي يتقدم به هذا المحتـال . أن جميع هؤلاء الناس غارقون في حمأة المصالح المادية ، أن جميع هؤلاء الاحياء نفوس ميتة .

وأن هذه الرمزية التي تكشفت بعد ذلك لجوجول لم تكن حاضرة في ذهنه حين بدأ كتابة كتابه وحين أرسل إلى بوشكين (سيكون هذا الكتاب مضحكاً جداً) ، أي أن بوشكين بعد أن قرأ الفصول الاولى من هذا الكتاب ، لم يسعه إلا أن يصرخ «يا إلهي ما أبأس بلادنا ، وما أبأس هذه الروسيا» وأجمع التقدميون والرجعيون كلاهما على أن يروا في هذه القصة المرحة تصويراً مؤلماً للواقع الروسي . وهل يجوز أن نفترض أن مؤلف هذا الكتاب الذي ينطوي على نقد قاس للرق كان من أشياء الرق ، وأنه لم يفكر إلا في دراسة الطباع ، وتصوير مواقف هزلية ، وأن قدرته على الملاحظة النافذة ، وموهبة في التصوير الكاريكاتوري هما اللتان فرضا على كتابه ، بالرغم منه ، اتجاهاً لم يكن قد تنبأ به ، مهما يكن من أمر فإن هذا الالتباس هو أحد أسباب النزاع الداخلي الذي سيهز نفس جوجول ، وهو نزاع داخلي توجه في هذا الجزء الاول من الكتاب ، حيث ترى من حين إلى حين دفقات عاطفية فجائية يتغنى فيها جوجول بإيمانه بالشعب الروسي ، وبمستقبل روسيا التي يرى أنها ستجري في طريق التقدم جرياً سريعاً جباراً أمام أعين أوروبا المشدوهة . وأنه في منفاه الذي أراده ليزداد ايمانه بروسيا من بعيد . لقد اتهموه بأنه سوّد وجه وطنه ، ولكن لئن كان الجزء الاول من قصيدته هو الجحيم ، فبعد الجحيم يأتي المطهر حيث يستغفر تشتشيكوف عن ذنبه ويتوب عن أثمه ، وبعد المطهر تأتي الجنة التي تكشف للعالم عن المواهب الرائعة التي أوتيتها الروح الروسية . ولكن لئن كان جوجول يدرك على الفور العيوب والأشياء المضحكة ، فإنه عاجز عن أن يصوّر الطباع الفاضلة تصويراً حياً .

وبين عام ١٨٤٣ وعام ١٨٤٥ كتب الجزء الثاني من «النفوس الميتة» ثم مزقه ، ثم عاد يكتبه (في بضعة الفصول التي حفظت مسوداتها تلاحظ أن الصفحات الجميلة هي الصفحات التي ما يزال يسيطر عليها النقد) ، ولم يلاحظ أن العائق الذي يحول بينه وبين ما يريد كتابته انما هوطبيعة موهبته ، ، فعزاذلك إلى سوء روحه ، وخبث نفسه ، فهو فيما يرى أنقص من أن يخلق شخوصاً كاملة . وهالته الرسالة التي عهد اليه بها الله ليقود شعبه ، هذه الرسالة التي سيتحقق في تحقيقها ، فشعر بالحاجة إلى أن يعترف على رؤ وس الأشهاد ، وأخذ يستنجد وهو يئن ويتأوه . وفي عام ١٨٤٦ ظهر كتابه مختارات من رسائلي إلى أصدقائي» ، وكان لهذا الكتاب ضجة كبيرة ، فقد كشف بها جوجوول عن حقيقة عقائده ، فظهر أنه محافظ وإنه صوفي ، وتكلم فيها بلهجة النبي داعياً روسيا إلى تجديد حياتها وايمانها ، وإلى أن تساعده على أن يجدد هو نفسه حياته ايمانه . وسافر إلى «الأرض المقدسة» آملاً أن يجد فيها الوحي ، فما زادته الرحلة إلا شعوراً «بجفاف قلبه» فقرر فجأة أن يعود إلى روسيا ، حتى يراها رؤ ية أعمق ، ويصورها تصويراً أصدق . وفي موسكو اتصل به أحد الرهبان وزاد في قلقه واضطرابه ، إذ أخذ يحدثه عن أن المطامع الأدبية أمر باطل لاقيمة له . وأخذ الفنان والمتقشف يتنازعان قلب جوجول .
حتى إذا أتى يوم ١٢ فيبراير من عام ١٨٥٢ حرق جوجول كل ماكان قد كتبه من الجزء الثاني من «النفوس الميتة» ، وأرهقه التقشف والصيام فمات بعد ذلك بأيام .

من جوجول إلى دوستويفسكي ـ ظلت «النفوس الميتة» تحدد ملامح الرواية الروسية مدة طويلة إنها واقعية قبل كل شيء ، وهي تصف الأفراد ، ولكنها تصف أكثر من ذلك البيئة التي يمثلها الأفراد وينتج عن ذلك بصورة إرادية أو غير إرادية (وهذه حالة جوجول) أن المؤلف يتميز في المسائل الاجتماعية والسياسية . فما من أثر أدبي إلا ويحاول النقاد أن يبحثوا عن «اتجاهه» .
وإذا كان ثمة اتجاه عند مسرح اكزاكوف (١٧٩١ ـ ١٨٥٩) الذي كان صديق

جوجول ، أبـاً السـلافيين كليهما ، فهـذا الاتجـاه هو اتجـاه المحافظـة ، ومحبـة الماضي ، والحنـين إليه . إن هذا الانسـان الفـذ الـذي كان يعبـد الطبيعـة والحيوانات ، انصرف في شيخوخته إلى الكتابة ، وجعل من نفسه كاتبـاً ليقص علينا ذكرياته في «ذكريات صائد سمك» و «ذكريات صياد» ، ثم اعمل عين هذه القدرة على الملاحظة في وصف البشر ، فكتب لنا «أخبـار عائلتـه» ، وسنـوات طفولته الحفيد باجروف» ، وهما كتابان جميلان لطيفـان يصـوران لنـا بيئتـه العائلية في بساطة محببة . وإن جونتشاروف ، هما أيضـاً ، رجـلان هادئـان سلميّان فنانان قبل كل شيء ، ولكنهما لما أوتيا من قدرة على جعل الأشياء التي يرونها حية أمام أعين الناظرين ، آثار النفوس أضرماها أكثر مما كان يتمنيان .

ولد جونتشاروف عام عام ١٨١٢ في سمبرسك ، وترعرع في واحدة من تلك المزارع الناعمة المترفية التي صوّرها ، فكانت وجبات الطعام عمله الأكبـر فيها ، وكانت الأيام تشبه الأيام وقد ظل طيلة حياته يحـب الرخـاء الهـادىء ولاتحتوي حياته ، كموظف إلا على حادث واحد غير متوقع (لقد ختم أعماله كموظف في وظيفة مراقب ، وباشر وظيفته هذه في اعتدال) ، وهو أنه اشترك في تلك الرحلة الطويلة (رحلة فريجات بالاس) حول افريقيا وآسيا ، وقَص هذه الرحلة كملاحظ سطحي فكه . وقد مات عام ١٨٩١ عجوزاً عازبـاً . وكان لايبالي أمور السياسة ، ولا يعنى بمسائل الدين حتـى أن ذلك الحـدث العظيم الذي تم في عصره ، وهو الغاء الرق ، لم يؤ ثر فيه أي تأثير . وكان الأدب هواه الأعظم ، وكانت أجمل ساعاته هي تلك التي كان ينصرف فيها إلى صقل رواياته الثـلاث على مهـل ، «حـكاية عادية» (١٨٤٧) «أوبلدمـوف» (١٨٥٩) ، «الوادي» (١٨٦٩) ، وفي هذه الروايات نقل لنا ملاحظاته على محيطه وعلى نفسه ، هذه الملاحظات التي كان يخزنها يومـاً بعـد يوم . وإنهـا «لحكاية عادية فعلاً» حكاية ذلك الشاب الذي يصل إلى العاصمة كبطل من أبطال بالزاك ولعله هو المؤلف نفسه ، فيحتل منصباً عالياً ، ويحظـى بمجـد أدبي ، ويقع في حب عظيم ، ثم ينتقل من خيبة ظن إلى خيبة ظن أخـرى

لينتهي أخيرا إلى رؤ ية نفسه على حقيقتها ، وإلى قبول نفسه على حقيقتها أي على أنه امرؤ عاجز وأناني . وإنك ببعض ملامح آرويف هذا في الرواية الثانية «أدبلدموف» إلا أنه أوبلد موف أكرم فطرة ، ويتمتع بمواهب حقيقية ،

أراد أن يتحرر من أسر المزرعة العائلية ، وأن يتثقف ويعمل ولكن خور العزيمة كان أقوى منه ، فكان يتمدد طيلة يومه على أريكة ، يحلم بما سيعمله في المستقبل ويحاول صديق له نشيط ، وامرأة شجاعة ، أن ينقذاه ، إلا أن أوبلدموف عاجز عن مواصلة المحاولة للنهوض بنفسه فيستسلم أخيراً إلى مرتبة خلق نموذج هو من أشهر نماذج الرواية الروسية ، صوّر به أكبر آفة قومية ، وهي هذا الخدر الشرقي الذي يحطم كثيراً من الاندفاعات النبيلة الكريمة . وقد احتفظ الروس بكلمة «اوبلوموفتشينا» يطلقونها على هذه الآفة التي أطلق عليها أوبلوموف نفسه هذا الاسم ، بكثير من المرارة .

أما الرواية الثالثة ، أعني «الوادي» ، فإن طول العقدة فيها لايكفر عنه تحليل نفسي قوي .

لقد كان جونتشاروف عاجزاً عن أن ينفخ حياة في شخصيات لم يضع فيها شيئاً من نفسه . وفي هذا يفوقه تورجنيف .

وإن في تورجنيف ، كما كان في جونتشاروف ، شيئاً من اوبلوموف ، أعني «روحاً نسوية في هيكل جبار» على حد تعبير ألفونس دوديه ، إلا أن هذه الرخاوة كانت تزول عنده أيضاً حين يكون الأمر أمر خلق أثر فني .

ولد في أوريل عام ١٨١٨ ، من عائلة ذات أصل تتري بعيد ، وكان أبوه أمرأ ضعيفاً ، وكانت أمه شرسة عتيّة ، وكان من قسوتها في معاملة الخدم ما جعل تورجنيف يكره العبودية كرهاً أشبه بالذعر . وقد نشأ في مزارع سياسكوه الغنية ، وأحب الطبيعة والشعر منذ طفولته .

وقد درس الفلسفة في روسيا أولا ، وفي برلين بعد ذلك . واتصل بالشبيبة المتحررة . ولما عاد إلى بطرسبرج أخذ يرتاد الصالونات ، وينظم أشعاراً ويؤ لف مسرحيات صغيرة ، وفي عام ١٨٤٧ كتب «كور كالينتش» وهي القصة الأولى من

«حكايات الصياد» ، وذلك حين عرف بولين فياردو ، وأحبها حباً اضطر إلى أن يصبح صداقة . ومنذ ذلك الحين عاش هذا العازب الذي يمقت الوحدة ، في أسرة فياردو حيث كان يتوهم أنه يعيش حياة عائلية ، فتبع هذه الأسرة في أسفارها خلال أوروبا ، وكان يرجع في كل صيف إلى سياسكوه . واستقر معها أخيراً في باد عام ١٨٦٤ ، ثم في باريس بعد عام ٨١٧١ ، وهناك أصبح صديق الأخوين جونكور وصديق موباسان ، والفونس دودية ، وجورج صاند ، وخاصة فلوبير ، وكان دائم التردد على مطعم ماينمبي . وبما أوتي من سحر بيان وعذوبة حديث ، حاول أن يحبّب باريس بروسيا وأدبها وكان مع ذلك يتألم من أنه فقد اتصاله ببلاده ، وقام ما قام بينه وبين الشبيبة الروسية من سوء تفاهم . ومات في بوجيفال ، عام ١٨٨٣ ، بعد أن عانى آلاماً مبرحة خلال شهور طويلة ، وظل أميناً للفن إلى آخر لحظة من حياته ، فكان أثناء تلك الفترة من الآلام يقرض آخر «قصائده النثرية» ، بعد النجاح الواسع الذي أصابته «حكايات صياد» ، عام ١٨٥٢ أصبح تورجنيف روائياً فحسب وان القصص التي تدور حول الفلاحين كانت رائجة يوم ذلك في أوروبا كلها ، ولم تكن قد انقطعت خطوتها لدى الشعب الروسي منذ جوجول ، فإن فلاد يميرداهل كان قد استعمل في هذا النوع من القصص معرفته باللغة الشعبية ، وجريجوروفتش (١٨٢٢-٩٩) كان قد نشر عام ١٨٤٦ «القرية» ، وعام ١٨٤٧ «أنطون العاشر» اللتين أعقبها «الصيادون» «المهاجرون» ، وبلنسكي كان قد حيّا بحرارة ، هذه الصور التي تمثل العادات الريفية دون أن يرى ما كان فيها من عاطفية واصطناع .

ولكن ما من أثر يروي حياة الفلاحين ، لافي روسيا ولا في الخارج ، قد بلغ ما بلغته «حكايات صيّاد» من بساطة ومن شعر في آن واحد . الصياد هو تورجنيف يمشي خلال الغابات والحقول فيلقى فلاحين ، ويشهد سوقاً ، ويحضر دفناً ويلتجىء إلى عزبة . . . فإذا روسيا الأقاليم كلها تتفتح أمامك ، وإذا أنت أمام أقوى وأبلغ مهاجم للعبودية ، لايستعمل في هجومه الكلام . . . كان تورجنيف يذكر تأثير كتابه في الرأي العام وفي الامبراطور نفسه ، على أنه أعظم

مجد أصابه . انه لم يخف ما في الفلاح (الموجيل) من نقائص وعيوب إلا أنه أظهر أيضاً ما يتحلى به من ذكاء . وحس سليم ، وغنى في الحياة الروحية ، وأظهر ما في الرق من قسوة ووحشية . ولم يزعم أن هؤلاء السادةالذين كانوا يجلدون الفلاح بالسوطويزجونه وينقلونه من مكان إلى مكان حسبما تملي عليهم نزواتهم ، إنما كانوا شياطين ، ولكنه أظهر أن الرق الذي يؤمن لهم الرخاء منذ قديم الأزمان ، قد قتل فيهم الاحساس بالأخوة الانسانية . لقد أوتي تورجنيف موهبة رائعة ، فإذا هو يرسم لك ببضعة أسطر نماذج لاتنسى من الأفندية والفلاحين ويدير لسان كل نموذج من هذه النماذج بلغته الخاصة وان قصته الفكهة أحياناً الحزينة غالباً ، تجري في إطار من الأوصاف تجتمع لها الدقة في معرفة الصياد بالنباتات والقوة في خيال الشاعر ، حرارة ثقيلة في الغابات ، أصباح مضبّة في الخريف ، روعة شروق الشمس وغروبها فوق أعقّة السهل الناعمة ، ليالي تتلألأ فيها النجوم في مراعي بيجين ، حيث نرى الأولاد الذين يرعون الخيول يحسون من حولهم أرواحاً خبيثة .

وأعقب الحكايات سلسلة من الروايات الكبيرة . ففي عام ١٨٥٦ ظهرت رواية رودين» ، ورودين هو الهملت الروسي ، وكان قد ظهر هذا النموذج قبل ذلك في إحدى «حكايات صياد» ، وسنراه يعود إلى الظهور مختلف الوجوه في جميع آثار تورجنيف ، إنسان ذكي كريم النيات ، لكن دون إرادة عاجز عن العمل ، بل حتى عن الهوى الحقيقي . وفي مقابل ذلك نرى البنات اللواتي يجليّ تورجنيف في وصفهن بعضهن يفيض رقة وحناناً ، وبعضهن يفيض حيوية وقوة ونشاطاً ، لايتراجعن أمام أي شيء متى وهبن قلوبهن . وهناك موضوع يتناوله تورجنيف بعد ذلك كثيراً ويظهر في هذه الرواية الأولى ، ألا وهو التعارض بين جيلين ، جيل الآباء الذين يعيشون في الأرياف حياة تقليدية ، بلا مثل أعلى كبير ، وجيل الأبناء الذين ينفصلون عن بيئتهم بالثقافة الأجنبية ، ويسكرون بآراء وأقوال لاجدوى فيها .

أما «عش أسياد» (١٨٥٩) فهو لايزيد على أنه رواية غرام ، في إطار قديم لطيف ، إلا أن رواية تورجنيف التي عنوانها «الغداة» هي التي يعود فيها

تورجنيف إلى مايقض مضجعه من البحث عن الانسان القوي الذي تحتاج إليه العصور الجديدة القريبة (ان الغاء الرق القريب) ، فها هو لايجد هذا الانسان القوي لا لدى الفنان الفاتن الخفيف ، ولا لدى المثقف ذي الطبع الخجول ، وإنما يجده لدى البلغاري انساروف ، ذي الجسم المريض ، والروح الرجولية ، هذا الانسان الذي ينذر حياته لتحرير بلاده ويموت قبل أن يباشر رسالته ، فنحو هذا الانسان إنما يتجه الانسان إنما يتجه حب هيلين الحارة التي كانت تختنق في جو تملأه الأنانية . فهل كان من المستحيل إذن أن يوجد في روسيا الرجل الشجاع القوي ؟ وعلى استياء الشبيبة الروسية يردّ تورجنيف بروايته «الآباء والأبناء» ، حيث يتحاشى كعادته أن يتحزب لأحد الجيلين ، القديم والجديد ، فإلى الآباء ، في أسرة ارتستقراطية ، يسند تورجنيف رهافة العادات والعواطف ، والاحساس بالجمال ويسند إليهم ، في أسرة أدنى من ذلك ، صلابة التقاليد الأخلاقية والدينية التي عرفت بها روسيا القديمة . أما الأبناء فنرى بينهم ضعيفاً هو آركاد ، وهو شاب ينعم بقلب ممتاز ، إلا أنه ماإن تنقضي حماسة الشباب وصبواتها الكريمة ، حتى يواصل عين الحياة التي كان يحياها أبوه ، إلا أن «العدمي» بازاروف من طينة أخرى ، فهو يمحو الماضي كله ، وقح ، لايساهل ولا يلين ، مادي ، في الفلسفة والحب يخضع كل أمر من الأمور للتجربة العلمية ، ينكر الفن والشعر ، ونحن نحزر أن يكون في السياسة من الدعاة إلى الثورة الشاملة إلا أنه مهما يكن قوياً ، فإن الحياة تقتصر عليه ، يزعزعه الحب أولاً ، وتقتله بعد ذلك حمى صاعقة وقد كان لهذه الرواية صدى هائل لدى الشبيبة المثقفة ، فأخذت على المؤلف هذه الخاتمة المتشائمة ، وهاجمته هجوماً عنيفاً واتهمته ، خطأ بأن تحيز ضد بازاروف ، والحقيقة أن التعلق بالماضي ، والصبوة إلى المستقبل ، وقلق الدقيقة الحافزة كل ذلك قد اجتمع في نفس المؤلف كما اجتمع في هذه الرواية ، والرواية هي في الوقت نفسه وثيقة تصور ذلك العصر ، وأثر فني خالد الموضوعية .

واستاء تورجنيف من سوء الفهم هذا العام ، فهاجم الرجعيين والتحرريين جميعاً ، هاجم دعاة السلافية وأنصار الغرب معاً هاجم الآباء والأبناء ، وذلك في

قصته «دخان» (١٨٦٧) ، وهي تصوير جبار ملّون حيّ للبيئة الروسية في باد ، ولمناقشاتها الأبدية العقيمة . فكل ذلك إنما هو دخان ، ككل شيء روسي وربما ككل شيء في الحياة .

ومع ذلك فان الخاتمة تشرق بنصيحة وهي : ان المرء ، يصمت ، في المكان الذي يكون فيه نافعا . والى هذه الخاتمة تنتهي روايته «الأرض البكر» (١٨٧٦) الا انها أثر ضعيف بالنسبة الى «دخان» وهي تكشف عن جهل المؤلف بالشبيبة الثورية .

ولم يكن تورجنيف قد اهمل فن الاقصوصة ابدا . وفي الاقصوصة تتجلى مزايا القصد والاسلوب التي يتجلى بها تورجنيف وفي عام ١٨٧٣ أضاف الى «حكايات صياد» مجموعة «البقايا الحية» ، ثم اقتصر بعد ذلك على آثار صغيرة جدا هي «القصائد النثرية» يعبر فيها ، بكلام قليل عن فلسفة ، ان البشر ليضطربون في الحياة في غير جدوى ، والطبيعة تنظر اليهم لاتبالي . . ولا يبقى على الانسان ، حين يفهم ان آماله عبث باطل ، الا ان ينصرف ، بتواضع ، الى عمل مفيد ، أو أن يلجأ الى هدوء الفن ويعتصم به .

هدوء الفنان هذا الذي اعتصم به تورجنيف واعتصم به بوشكين ، ماكان يروق للمعاصرين وكانوا يؤثرون عليه الكفاح والنضال . وكان الجمهور يستاء من موضوعية تورجنيف ، وماكان اسهل عليه ان يصنف الكتاب في زمرتين ، زمرة التقدميين وزمرة الرجعيين ، وبعد الغاء الرق ظلت هنالك أمور كثيرة يتناولها التحرريون بالنقد وابداء السخط ، فكان بؤس الفلاح ، وتفسخ الموظفين ورجال الاعمال ، وفقدان الاصلاح السياسي ، كان كل ذلك يمدّ المّستهنين بمادة مثيرة واسعة ، واول هؤلاء المتّهمين ، سالتيكوف (١٨٢٦ -٨٩) الذي كان يكتب في أول الأمر باسم مستعار هو شتشدرين ، كان سالتيكوف هذا موظفا رضيا خلال مدة طويلة ، إلا مدة قضاها في فياتكا مغضوبا عليه حتى اذا وافى عام ١٨٦٨ استقال من وظيفته وانصرف مع فكرازوف الى ادارة «حوليات الوطن» ، وفي فياتكا كان قد كتب «وجوه ريفية» ، ثم اتبعها «بصفحات هجائية

نثرية» ، و«حكايات بريئة» و«قصة مدينة» و«اسرة جولوفييف» وسادة طشقند هؤلاء ، و«يوميات ريفي» الخ . وفي هجائه القارص اللاذع الذي يكوي ويلهب ، والذي شبه بهجاء سريفت ، يستعرض كل طبقات المجتمع ، ولا يرحم منها الا طبقة الفلاحين . ففي كتابه «اسرة جولوفييف» يرسم لك صورة قاتمة لاسرة من النبلاء ورثت عبئا ثقيلا من الفساد والرذيلة والكسل . وترى في هذه الرواية صورة رائعة لامرأة عجوز ، نجيلة خبيثة ، كانت تسيطر على حياتها كلها فكرة العائلة ، بمعنى انها حفظت ثروة أولادها ولكنها لم تعن يوما بالاولاد انفسهم ، واشأم من هذا الوجه ايضا وجه المنافق يورو شكا ، اصغر ابناء العجوز وهو ولد متفسخ منحل اجهز على العائلة وأتم خرابها .

وتشتمل روايات ساليتكوف ، عدا من عليهم من غير المتلائمين ، تشتمل على نماذج كثيرة لأناس عرفوا كيف يتلاءمون مع الظروف الجديدة وكيف يستفيدون منها ويستغلونها . فهو يرسم لنا موظفين من كل الدرجات يعرفون كيف يسلكون السبيل الى الاعتناء والاثراء بفضل الوظيفة ، ولاسيما في الاقاليم البعيدة التي هي اشبه بمستعمرات تحت رحمة المستعمرين . (سادة طشقند هؤلاء) ، وهو يرسم لنا الاصولي الذي يعرف كيف ينجح فاذا هو رجل عظيم ، حاكم في الاقاليم أو وزير لا ضمير له . اليست الروسيا كلها طشقند واسعة «اهلها شياه مستعدة في كل فصل أن تستسلم للجزار» وهاهو صاحبنا في قصة مدينة ، مدينة جلوبوف ، يرى قصة الروسيا كلها (يُقنّع المؤلف القياصرة فيتحدث عن حكام) ، حيث الشعب خاضع مستسلم منقاد .

ان هذه الطريقة في الاشارة والتورية ، بالاضافة الى صعوبات اللغة القاسية الغامضة التي يستعملها سالتيكوف ، كثيرا ماتجعل الروسيين الحاليين انفسهم يعزّ عليهم فهم آثار هذا المؤلف ، وقد عتقت اثاره اكثر من غيرها لانها قلّما ترتفع الى أعلى من مستوى تصوير عصر بعينه ، إلا أنها من أجل معرفة هذا العصر تعَد مصورا تاريخيا لا نظير له . ومليئة بمثل هذه الاشارات والتوريات ايضا رواية رشتينكوف «اسرة بودليبوفستي» (١٨٦٢) التي ترسم صورة للعادات الفلاحية

القاسية وتجعلك تتخيل مدى البؤس المادي والاخلاقي الذي تعانيه الروسيا بأسرها ، وكذلك رواية «مالعمل ؟» لمؤلفها تشرينشفسكي (١٨٦٤) التي أصابت نجاحا عظيما والتي تبدو اليوم متصنعة ، وفيها يصور لنا المؤلف طالبين بلغا من الكمال حدا خارقا للمألوف وجنتلمانا تولستويا قبل تولستوي ، يرتضي ان يصبح سائقا وعاملا لجرّ المراكب في الفولجا .

ولا يقل الكتاب المحافظون واقعية عن اولئك ، ولكنهم يستمدون من الواقع نتائج أخرى . نذكر من هؤلاء بيزمسكي (١٨٢٠ ـ٨١) جمع بواسطة رواية «ألف نفس» أصوات اليمين واليسار وهي قصة مغامر لا ضمير له ولا وجدان ، إلا أن رواية «البحر المضطرب» التي يصور فيها المجتمع الروسي وقد شوشه الغاء الرق ، قد حشرته نهائيا في عداد الرجعيين .

وهناك لزكوف (١٨٣١ ـ٩٥) ، الذي ظلت مواهبه مغمورة خلال مدة طويلة بسبب ميوله ، ومع ذلك فان جوركي قدّرها واحترمها الى حد كبير . وكان لزكوف فقيرا فلم يستطع ان يحصّل ثقافة مدرسية عالية وكان يكسب رزقه من التجارة ، واتاح له ذلك أن يطوف في انحاء روسيا . وفي عام ١٨٦٢ كتب مقالا تناول فيه الطلاب الثوريين ، فكرهه هؤلاء ونقموا عليه ، وجاءت روايتاه «لامخرج» و«حتى السكين» فزادتا هذا الكره وهذه النقمة ، اذ كانتا موجهتين ضد الاشتراكية ، وكانتا مملؤتين بمغامز شخصية مؤذية . ومن حسن الحظ أن هذه الآثار النضالية ليست كل آثار لزكوف . فله آثار أخرى لا شأن لها بالكفاح ، نذكر منها «رجال الكنيسة» وهي صورة وحيدة في الأدب الروسي ترسم لنا الجو الاكليريكي ، فترى فيها رهباناً كراما نبلاء كما ترى كهنة مضحكين سخفاء .

بطل الكتاب رجل اسمه توبيروزوف ، ملتهب ايمانا ومحبة ، يحارب عداوة المثقفين ، ويحارب في الوقت نفسه سخافة رؤسائه ، ثم يغلب على امره .

وهناك اثار أخرى يصور فيها لزكوف بيئات أخرى راها أيضا عن كثب ، كبيئة تجار الاقاليم في روايته «ليدي مكبث مقاطعة متسنك» ، وكبيئة قدامى المؤمنين في روايته «الملاك المختوم» ، ان في هذه الأقاصيص القصيرة لفتا كثيرا ، وان في لغتها

لكثيرا من الصقل والصفاء والعناية .

ونذكر ملينكوف (١٨١٩ ـ٨٣) الذي انتحل اسما مستعارا هو بتشرسكي ، وهو يقترب من لسكوف بالموضوعات التي يعالجها ، ولكنه دونه قيمة كانسان وككاتب . وكان استاذا في ثانوية برم ، ثم في ينجني نوفجورود ، فعنى بالعادات المحلية ، وخاصة عادات قدامى المواطنين الذين يكثرون وراء الفولجا ، وقد اتهم بانه استغل ثقتهم به واطمئنانهم اليه ليقدم لرجال الادارة الذين ترك التعليم وانضم اليهم ، اسلحة ضدّهم وقد خصّص لهم روايتين طويلتين ـ «في الغابات» (١٨٧٢) «وفي الجبال» (١٨٧٥ ـ٨٠) واصفا عاداتهم التي ظلت ثابتة منذ الانشقاق ، والحياة في قراهم وصوامعهم المختبئة في اعماق الغابات ، والاشكال الصوفية التي يتخذها في بعض الأحيان الايمان الشخصي لدى الكهنة ، ومزايا الاخلاص والصدق في العمل .

التي يتمتعون بها ، ولكنه وصف إلى جانب ذلك ضيق تفكيرهم وافراطهم في القوة في الحياة العائلية . إن هذه اللوحات الملونة تعوزها الحرارة التي كان يمكن أن تجعلها قوية مؤثرة .

دوستويفسكي ـ ينسبه المحافظون اليهم ، وأن ايمانه يتفق في الواقع مع آرائهم إلا أن عبقريته ، قد جعلته ، بالرغم منه ، يحطم جميع الأطر ، ورفعت مؤلفاته إلى مستوى التراث المشترك للانسانية كلها .

ولد فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكي بموسكو عام ١٨٢١ ، وكان ابوه طبيباً ينتسب إلى صغار النبلاء ويملك ثروة تافهة ، وكان قاسياً بخيلاً تقياً . وقد شب دوستويفسكي وترعرع في المدينة ، خلافاً لمعظم الكتاب الروس ، وفي المدينة انما ستدور رواياته . ولقد كان لموت أمه ولموت بوشكين آثاراً عميقة في نفسه ، وسبّب ذلك آلامه الكبرى في سنينه الأولى . وكان عمره سبعة عشر عاماً ، وكان يدرس في كلية الهندسة ببطرسبرج دراسات لم تكن ثروته حين جاءه نعي أبيه الذي قتله الفلاحون لقسوته في معاملتهم ، فألقاه هذا النبأ إلى نوبة صرعة ، وكان منذ طفولته يعاني نوبات من الغم . ولم يبق ضابطاً إلا

مدة سنة واحدة ، وقرر أن يكتب . وفي عام ١٨٤٤ أصـدر روايتـه الاولى «الناس الفقراء» التي تأثر فيها بـ «معـطف» جوجـول ، فنالـت استحسـان بيلنسكي ونكرازوف وحماستهما . إلا أن الاقاصيص التي اعقبت هذه الرواية قد كتبت بسرعة مفرطة . وقد اجتذبته الآراء التحررية التي سيتألب عليها بعد ذلك ، فانضم إلى جماعة بتراشفكي التي لم تكن بذات أذى أو خطر ، فاعتقل معه سنة ١٨٤٩ وحكم عليه بالموت . ووقف أمام ركيزة الاعدام ينتظر الموت القريب ، وعاش دقائق عنيفة سيذكرها بعد ذلك في كتبه غير مرة ، وفيما هو كذلك إذا بالعفو الامبراطوري يصل بعد أن تأخر بمكيدة قاسية ، وكان عفواً جزئياً ، إذ يقرر أن يستبدل بالاعدام الحبس في معتقل أومسك أما كيف كانت هذه السنين الأربع التي قضاها في [illegible]ن فهذا ما تحسه إذ تقرأ روايته «ذكريات من منزل الأموات» ، رغم أن دوستويفسكي لم يتلفظ بشكوى واحدة ، لا في هذا الكتاب ولا في حياته . وإنما هو يقتصر في هذا الكتاب على أن يصف لك ببساطة ، الحياة النظيفة التي يعيشها المعتقلون ، وأن يبحث بأخوة عن الشعلة الالهية لدى هؤلاء الافراد الساقطين . ولما خرج من المعتقل كانـت صحتـه مهدّمة . وخدم بعض الوقـت ، كجنـدي بسيط ، في سيمينبالاتنسـك ، ثم أعيدت إليه رتبة الضابط ومنزلة النبالة ، ولكنه لم يحصل على حق الرجوع إلى روسيا إلا سنة ١٨٥٩ . وكان قد تزوج في سبيريا أرملة مريضة غريبة الطباع ذات بدوات هي مـاري عيسائيف . وما أن عاد إلى روسيا حتى ضمن له كتاباه «ذكريات من منزل الأموات» و «المستذلّون المهانون» الشهرة وذيوع الصيت . وأنشأ مع أخيه ميشيل مجلة «الزمان» التي منعت بعد ذلك بقليل . وفي عام ١٨٦٢ قام برحلة أولى إلى الغرب . وفي عام ١٨٦٣ رحل إلى باريس ليلحق الطالبة بولين سوسلوف التي خانته قبل أن يدركها . ومع ذلك فقد سافر معها إلى المانيا وثم عاد إلى بطرسبرج ، ليواجـه الوانـاً من الصعوبـات . وتمـوت زوجته ويموت أخوه تاركاً له عبئاً من الديو وعبء اعالته أسرة . وعندئذٍ بدأ يعيش حياة أعمال شاقة فعلاً فكان يتقاضى من الناشر ، مقدماً ثمن الكتاب

الذي لم يكد يشرع فيه ، وكانت المهلة المحددة لانجاز الكتاب تتصرّم بسرعة فتقض مضجعة وتلهب ظهره ، فكان يعمل كالمحموم . واستعجالاً للعمل ، استأجر شابة تكتب على آلة اختزال ، وهذه الشابة هى آناسنتكين التي أصبحت زوجته عام ١٨٦٧ . لقد أعجبت به هذه الفتاة دون أن تفهمه وأحاطته بكثير من الرقة والحنان والاخلاص . وقضيا معاً عدة سنين في ألمانيا ، وسويسرا ، وايطاليا ، وكانت هذه السنين مليئة بالاحزان وكان يزيد هذه الاحزان فداحة ما تعلق به دوستويفسكي من هوى المقامرة الذي كان يدفعه أحياناً إلى الروليت دفعاً لاحيلة له فيه ، ولا سبيل إلى مقاومته . وفي عام ١٨٧١ استقرت هذه الاسرة التي انجبت عدة أولاد لم يعش منهم إلا اثنان استقرت في بطرسبرج ، وتحسنت احوالها المالية حين عزمت مدام دوستويفسكي على أن تنشر هى نفسها مؤلفات زوجها . ولكي يعبّر دوستويفسكي عن آرائه السياسية والدينية ـ وهي شيء واحد ـ تعبيراً مباشراً أكثر من الرواية أخذ ينشر «يوميات كاتب» على شكل دوري . وفي عام ١٨٨٠ خرج من عزلته ليلقى في حفلة تدشين تمثال بوشكين خطابا استقبل بحماسة عظيمة . ولكن محن الشباب ، ومتاعب العمل المفرطة ، وآلام الامراض (لقد اضيف إلى مرض الصرعة مرض الزلال) ، فقتله في يناير من عام ١٨٨١ نزيف رئوي شديد . . . ومات مسيحياً .

إن الروايات الكبرى التي الفها دوستويفسكي «الجريمة والعقاب» (١٨٦٦) و «المقامر» و «الأبله» (١٨٦٨) ، و «الزوج الأبدي» (١٨٦٩) و «الشياطين» (١٨٧١) ، و «المراهق» (١٨٧٢) و «الاخوة رامازوف» (رواية غير تامة ظهر الجزءآن الأولان منها سنة ١٨٧٧) لتحتاج كل منها إلى دراسة مفصلة ، ولا نستطيع هنا إلا أن نستخرج ملامحها الاساسية .

إن العقدة المركزية في هذه الروايات ـ وهي عقدة بسيطة إلى حد ما ـ تشتمل دائماً تقريباً على جريمة . فرواية «الجريمة والعقاب» تصور لنا طالباً طموحاً يقتل امرأة عجوزاً ليسرقها ، ثم ينتهي بأن يشي بنفسه ويعترف بجريمته . و

«الأبلة» رجل طيب في أعماقه ، يحتار بين أمرأتين : امرأة يحبها وامرأة محتاجة إلى أن ينقذها فيختار أن يتزوج الثانية . وهي ترفض تضحيته ، وتمضي تلحق برجل آخر يقتلها . ورواية «الشياطين» (أو «الموسوسون» بحسب الترجمة الفرنسية) تدخلنا إلى مؤامرة اشتراكية يشتبه في أحد اعضائها ويتهم بالخيانة ويقتل . ورواية «الاخوة كارامازوف» تروي لنا قصة خطأ قضائي مفجع ويمكن أن نقع في هذه الأثار على جميع عناصر الرواية البوليسية تقريباً : القدرة على الاحتفاظ ، إلى آخر الرواية بالسر الذي يحمله أحد الشخوص أو بضعة شخوص ، والصدف الغريبة التي تجمع هؤلاء في مكان وزمان غير متوقعين ، وتراكم حوادث الموت الفظيعة ، وخاصة في الشياطين» ، وكمية من العقد الثانوية يتداخل بعضها في بعض ، أن دوستويفسكي يتمتع بقدرة على الخلق بلغت من القوة أن الاشخاص ينبعون نبعاً كأنما على غير ارادة منه ، ولا بد أن يجدوا لانفسهم مكاناً في الرواية ، فيراهم ، ويرينا اياهم ، يرسمهم ببضعة خطوط تفرض نفسها على الذاكرة فرضاً ، كتفاحة آدم التي في رقبة الأب كارامازوف . والمناظر قليلة في آثار دوستويفسكي ، وتكاد تكون كلها في المدينة وامكنة داخلية يوحي بها أكثر مما يصفها ، وهي دائماً على صلة مباشرة بحالة نفسية ، ذلك أن النفس الانسانية هي التي تعنيه وتستهويه وتملك عليه عقله . وهو أكثر موضوعية من تولستوى ، فلا يضع من نفسه في شخوصه إلا ملامح متفرقة ، إلا أنه يعيش مع كل منهم ، ويتبعهم خطوة خطوة .

ومن مستحدثاته التي أثرت في الرواية الحديثة تأثيراً كبيراً اهتمامه بدراسة شخوصه في ساعات وفي مواقف لا شأن لها بعقدة الرواية وكذلك القيمة التي يسندها إلى اللاشعور إلى القوى الغامضة التي قد تؤدي بكل انسان إلى أعمال غير منتظرة ، وخاصة بالجامحين والعصبيين الذين يؤثر تصويرهم والذين يعدون في معظمهم ، حالات مرضية ، فالأمير ميشكين مصاب بالصرعة وكذلك سمردياكوف الأول قديس والثاني شيطان . وكثير من شخوصه أصحاب رؤى ، رؤى فظيعة لدى بعضهم من غير الطاهرين ، مهدئة مسكّنة لدى أليوشا كارامازوف . ولا يعني دوستويفسكي بالحد الوسط .

(لقد رسم صوراً كاريكاتورية لا بطال تورجنيف ، ولتورجنيف نفسه في «المسوسين») وإنما يعني بالاشخاص القادرين على أعمال اجرامية ، وعلى أعمال رائعة . وهو يدرسهم دراسة تجريبية ، فيضعهم أمام الجريمة وأما الحب ، ويميّز بين ثلاثة نماذج أساسية ، رجل الفكر الذي يغلب عليه العقل ، ورجل الهوى الجامح الذي تغلب عليه شهوات الجسد ، والرجل البسيط الصافي .

وقد حاول بعض الباحثين أن يعللوا سيطرة الجريمة على فكر دوستويفسكي بالكبت الفرويدي أو بخطيئة مخبأة . ولعل الابسط من هذا أن نقول أن الفترة التي قضاها في المعتقل قد فرضت على فكره مسألة العلاقات بين المجرم وعمله (لقد استطاع أن يشاهد فقدان الندم ووخز الضمير لدى المجرمين) ، ومسألة الجريمة وآثارها في النفس ، أما راسكولينكوف ، الطالب ، بطل «الجريمة والعقاب» فهو رجل فكر يؤ دي به تفكيره إلى القتل ، فليس اجراماً في رأيه قتل كائن مضرّ هو هذه العجوز المرابية ، في سبيل تأمين امكانيات الحياة الخصبة لانسان فذّ موهوب يشعر بوجوده في نفسه ، ليس من حق انسان كنيوتن أو نابليون أن يهلك . إلا أن صاحبنا ، وقد جبل من عقل دون أرادة لم يستطع أن يستفيد من جريمة وقد حطّمه سرّة . وعلى أن وخز الضمير ليس هو الذي يدفعه إلى أن يشي بنفسه ويعترف بجريمته ، فإنه يظل مقتنعاً بصحة الاستدلال العقلي الذي قاده إلى الجريمة ، وأنه ليحتقر ضعف أرادته وخور نفسه . ولم يفهم قانون الحب والشفقة الذي اخترقه إلا في المعتقل ، إلى جانب حبيبته المسكينة صوفيا . وأما ايفان كارامازوف ، الذكي جداً هو الآخر فإنه مقتنع ، هو الآخر ، بمبدأ أن كل شيء مباح ، إلا أنه عاجز عن العمل أكثر من راسكولينكوف ، فإن سمر دناكوف الذي سيقتل العجوز كارامازوف ، ولكن ايفان سيعرف أنه هو المسؤول عن ذلك .

وإن كل رواية من هذه الروايات تضع لنا ازاء هؤ لاء الاشخاص العقليين شخصاً تغلب عليه شهوات الجسد ، فلا يستطيع إلى دفع اهوائه النجسة سبيلاً ، سفيدريجايلوف في «الجريمة والعقاب» ، وروجوجين في «الأبلة» ، أما

في «الأخوة كارامازوف» فهناك ديمتري الذي تتخذ سيطرة اللذة عليه طابعاً ، لأنه من طينة كريمة ، وهناك الأب كارامازوف الذي يبلغ أدنى درجات الحقارة . ومهما يكن من أمر ففي كل انسان تقوى غريزة الشهوة الدنيئة ، حتى أليوشا الملائكي يعرف أن فيه شيئاً من أسرة كارامازوف ، ولا يحتقر أباه . وأن الكائنات النقية ، تلك التي لا تنتمي إلى مملكة سودوم ، بل إلى مملكة سيدتنا مريم العذراء ، فإنها أكثر تواضعاً من أن تظن نفسها فوق النجسين ، أو فوق المجرمين ، فهي لا تشعر نحو هؤلاء بغير عاطفة الحب والأخوة ، فبينما نرى العقلين والشهوانيين أناساً انانيين على حد سواء ، نرى هؤلاء الانقياء يفيضون حباً ورحمة ، فهم يحبون البشر لأنهم يؤمنون بالله ، ويمثل دوستويفسكي هؤلاء بأطفال ونساء يمثلهم بصوفيا التي أصبحت مومسا لشدة تفانيها في سبيل اسرتها والتي ستلحق براسكولينكوف إلى المعتقل يمثلهم بداشا المستعدة للتفاني في سبيل ستافروجين ، بجروشنكا المستعدة للتفاني في سبيل دمتري ، ويمثلهم أخيراً برجال الأمير ميشكين ، الأبلة» الذي يدرك بالقلب مالن يستطيع أي عقلي أن يدركه بالتفكير والأب زوسيم ، وأليوشا كارامازوف ، الانسان اللطيف الرقيق . إن قانون الحب الذي يجسده هؤلاء الانقياء يسيطر على تفكير دوستويفسكي في الدين والسياسة .

وإن دوستويفسكي ليفسح في رواياته مجالاً كبيراً للمحادثات والمناقشات الفكرية التي تتخلل الحوادث على حساب الكمال الفني ، ولكنها تخلع على هذه الحوادث معناها العميق وتجعلنا نشعر بما في نفس المؤلف من ثنائية ، وربما يختلج في قلبه من شكوك تضطره قوة خفيَّة فيه إلى التعبير عنها ، ويحاول عقله أن يفكر فيها ويجيب عليها . وأنه ليعلن أنه من أنصار الاوتوقراطية منذ عاد من سبيريا ، ففي كتابة «المسوسين» يهاجم الاشتراكية مهاجمة صريحة ، ولكنا نحسّ مع ذلك أن بقايا من ثبات الشباب ما زالت تعتمل في نفسه حتى لنتساءل اليس يلتجيء إلى الاوتوقراطية هربا من الاغراء الثوري ، كما يلتجيء إلى الأرثوذكسية هربا من الشك الديني . وفي رأيه أن هذين

المفهومين ، أعني الارثوذكسية والاتوقراطية ، مرتبطان أوثق الارتباط . أنه يشبه الاشتراكية بالالحاد فيأخذ عليها أنها لا تفكر إلا في الحياة المادية ، وإنها تهدم الحرية الفردية . أما الارثوذكسية فهي دين الحرية ، خلافاً للكاثوليكية التي هي دين عقيدة صلبة وتدرج في المراتب استعبدا الانسان ، مع أن المسيح جاء لتحرير الانسان . ويقول دوستويفسكي سيأتي يوم يقول فيه الشعب الروسي - الذي ينطق بلسان الله - كلمة للناس وأن دوستويفسكي ليختار أن يكون ارثوذكسيا حتى يكون هو والشعب الروسي شيئاً واحداً ، ولقد عرف دوستويفسكي اغراء الالحاد ، وعرف كيف يقرر مع كيريلوف «المسوسين» حريته الكاملة كانسان أعلى ، بالانتحار ، ولكنه قد انقذ ، كشاتوف في هذه الرواية نفسها بالايمان بروسيا وهو اليوشا قد «أراد الايمان» بالله ، ونفسه المعذبة ابداً قد استشعرت من بعيد رباطة جاش الأب زوسيم ، وحالات الوجد والنشوة التي عاناه اليوشا . إن طمأنينة النفس هذه إنما تكتسب بحب الله ، وحب الناس ، وبقبول العذاب والألم . ولو على غير استحقاق ، فلذلك ينعش النفس ويحييها من جديد وينهض بها . . إن في الشقاء لقداسة . وما لم يفهم الناس هذه الحقائق التي هي رسالة روسيا إلى العالم فسيظلون يخبطون في التناقض ، تتجاذبهم مغريات الجسد والفكر ، وغواية الجريمة ، وقوى الشر ، هذا العالم المعذب ، القلق ، المضطرب ، الذي تنقضه لنا روايات دوستويفسكي صوراً مؤلمة هائلة .

تولستوى - إن دوستويفسكي وتولستوى - وكلاهما روسي في أعماقه - يشتركان في أن كلاً منها يشعر بالحاجة الملحة الجامعة إلى ايجاد الحقيقة المخلصة المنقذة ، وإلى اعلانها للعالم ، ولكن ثمت مزاجان ولا موهبتان بينهما من الاختلاف والتعارض ما بين مزاج دوستويفسكي ومزاج تولستوى ، وما بين مواهب الأول ومواهب الثاني . حياة دوستويفسكي انقضت في محن فظيعة ، وحياة تولستوى انقضت هادئة رضية في الظاهر وكان دوستويفسكي يعمل كالمحموم ، وكان تولستوى يعمل على مهله . دوستويفسكي انسان مريض ،

سريع التأثر عنيف الانفعال إلى أقصى حد ، وتولستوى يفيض صحة وقوة . تسيطر على دوستويفسكي اهتزازات نفسية مضطربة ، واندفاعات لا علة لها ولا ضابط ، ويسيطر على تولستوى المنطق والثبات . دوستويفسكي صوفي رغم شكوكه ، وتولستوى يفكر تفكيراً استدلالياً ، رغم ازماته الدينية . يريد دوستويفسكي أن يكون محافظاً ويريد تولستوى أن يكون مهدماً . كلا الرجلين ملأ رواياته فلسفة ، إلا أن فلسفة دوستويفسكي تغوص في الأعماق وتتردد ، وتناقش ، في حين يكتفي تولستوى ببضعة افكار بسيطة جداً تغيرت أثناء حياته ، وكان في كل مرة يقررها في قناعة كاملة . كان الاجانب ميالين إلا أن لا يروا روسيا إلا من خلال دوستويفسكي ، ولكنهم بدأوا يتعرفون فيها الآن الحيوية القوية والمنطق الصامد اللذين يتصف بهما تولستوى .

وإن حياة تولستوى وآثاره لتترتب على طبقات متعاقبة ، يقف عند أحداها حين يجد تعليلاً للحياة يسمح له بالحياة والخلق ، ثم تعقب ذلك فترة قلق وبحث ينتقل منها إلى الطبقة الاعلى . ولد الكونت ليون نيكولا ثفتش في الثامن والعشرين من اغسطس عام ١٨٢٨ في ياسنايا بوليانا التابعة لحكومة تولا . وكان اسلافه من ناحية الأب ممن كان لهم في تاريخ روسيا ، منذ مدة طويلة ، شأن يذكر ، وأيضاً فضائح صاخبة إلا أن اسرة أمه ، الأميرة فولكونسكي ، كانت انبل واغنى . وقد فقد أمه يوم كان في الثانية من عمره وفقد أباه في التاسعة ، واحتضنته عمات له . وفي جامعة قازان درس اللغات الشرقية والحقوق قليلاً ، ولكنه في التاسعة عشرة من عمره ترك الدراسة فجأة لينصرف إلى استغلال أراضيه ، وهناءة عبيده . ولم يلبث أن سئم ذلك ، فعاش خلال فترة ما ، حياة اللذة والمتعة في بطرسبرج ، ثم سافر إلى القوقاز ليلتحق بأحد اخوته ، ثم دخل الجندية وأصبح ضابطاً . وكان مع ذلك قد قرأ كثيراً ، وأعجب ببوشكين وجوجول وأعجب أيضاً بمونتسكيو وروسو ، وكان لروسو ، فيما يعترف هو ، تأثير ضخم عليه . وقد حلم بالكتابة في سن مبكرة . وكتب في القوقاز ، كتابه «طفولة» الذي نشر عام ١٨٥٢ . وليس هذا

الكتاب ذكريات صرفة ، إلا أنه كسائر روايات تولستوى مزيج من الواقع والخيال ، من الشخصيات الحقيقية والشخصيات الخيالية . وعلى كل حال فإن الطفل الذي يضعه في مركز الرواية يمثله هو نفسه ، يمثل تأثيراته وأفراحه واحزانه ، وأن تولستوى ، منذ هذا الكتاب ، ليبلغ درجة الكمال في التصوير البصري (وذلك في تلك اللوحات المتعاقبة ، يوم في الريف ، الرحيل ، يوم في موسكو . .) . أما تتمة هذا الكتاب «مراهقة» ، «شباب» فقد كتبها على غير هوى ، فجأة خلوا من العفوية والانطلاق . . لقد كانت تجذبه ، منذ ذلك الحين ، جوانب اخرى من الحياة .

ولقد أثرت القوقاز تأثيراً كبيراً في هذا المتتلمذ على روسو ، واعطته جواباً أول على السؤال الذي كان قد طرحه على نفسه ، لماذا نحيا ؟ ففي رواية كبيرة شرع فيها وظلت قصة صغيرة ، وهي «القوقازيون» ، نرى هذا الجواب يعلنه للشاب المتمدن العم بيروشكا ، انسان الطبيعة الذي يحب الأشجار والبشر والحيوانات ويمارس الصيد مع ذلك بلا وخز الضمير ، لأن ذلك هو قانون الطبيعة ، «إن الله قد خلق كل شيء لسعادة الانسان» ، وليس ثمت خطيئة . وإن حب الحياة هذا ليزداد قوة لدى تولستوى حين يرى هذا الموت الذي يواجهه الجندي . فأثناء حرب القرم ، حيث كان طابوره محاصراً في سباستوبول . ادهشته تلك البساطة التي يقابل فيها ابن الشعب العذاب والموت ، بساطة جعلت «حكايات» تولستوى عن سباستوبول فاتنة أخاذة . أما هو ، هو المعقد غير البسيط ، فإن فظاعة الحصار قد زعزعت ايمانه بقانون الطبيعة ، وها هو يعود إلى بطرسبرج تاركاً عمله ، وقد سيطر عليه غير قليل من اليأس والشلل .

ومع ذلك ما أن انقضت فترة قصيرة حتى عاد يأمل بأن التقدم والتطور سيحيلان الانسان مسالماً طيباً . إلا أن هذا الأمل قد أصيب بضربات قوية أثناء رحلة قام بها تولستوى إلى الخارج الذي هو أكثر حضارة من روسيا وأقسى رغم ذلك (لقد شهد في باريس منظر اعدام) . ومع هذا فسيحاول تولستوى

أن يساهم في التقدم والتطور ، وها هو يؤسس مدرسة في ياسنايا بوليانـا ، ويؤلف كتب قراءة للشعب ، وسيحاول في الوقت نفسه أن يعيش ، ببساطة ، حياة عائلية ، فيتزوج ، في عام١٨٦٢ ، صوفيا برس وهو في الرابعة والثلاثين ، وهي في الثامنة عشر ، فتاة جدية ، حارة ، سريعة التأثر ، ولقد عاش الزوجان خلال سنين طويلة حياة سعيدة في ياسنايا بوليانا ، رغم بعض الصدمات ، وكانت تلك هي الفترة الهادئة والخصبة من حياة تولستوى ، انتج خلالها «الحرب والسلم» (١٨٢٤ ـ ٦٩) و «آنا كارنين» (١٨٧٣ ـ ٧٧)

وكان تولستوى قد فكر في أن يكتب رواية عن الدسمبريين ، فلكي يعلل عصرهم ويشرحه اضطر أن يدرس حروب نابليون . ورواية «الحرب والسلم» انما تمثل في آن واحد كبريات الحوادث التاريخية التي وقعت لنابليون والاسكندر وكوتوزوف والحياة اليومية لاسرتين اسرة روستوف ، وبولكونسكي ، وقد خلقهما المؤلف على طريقته المعتادة ، فنقل محيطه الخاص إلى بيئة اخرى ، واضفى كثيراً من شخصيته على بطليه الرئيسيين الأمير اندره وبطرس . وقد أوتى تولستوى هذه القدرة التي لا يضارعها فيه أحد ، وهي أنه يفرض شخصياته الكثيرة على الذاكرة فرضاً ، بخطوط رئيسية معبّرة ، كالنظرة الجميلة من الأمير البشعة ماري وكبياض ذراعي هيلين ، وكثرة حركات ناتاشا التي تركض وترقص وتعدو فياضة بالحياة والنشاط . وأنه إذ يصف لك نابليون وهو يتزين ، أو يصف لك الفلاح الذي يمضي إلى سمرلنسك على عربة ، يشعرك بأنك أمام شيء مرئي محسوس وأن الأسرتين ليتداخل مصيرهما بسهولة ، وكان يصعب أن يربط مصيرهما بمصائر أوروبا بلا تكلف ، لو لا أن الحوادث الصغيرة الطفيفة التي تحصل كل يوم لها من القيمة في نظر تولستوى ما لمعركة ظافرة . وما مثل عظماء الرجال الذين يؤمنون بعظمتهم ، كنابليون الذي يعتقد بأنه يوجه التاريخ ، إلا كمثل الطفل الذي يمسك باسار باب العربة ، فيعتقد بأنه يسوق العربة . وإنما

الحقيقة أن القدر هو الذي يوجه الانسان وأن الانتصار أو الانكسار في المعارك لا يتم بغبقرية القائد بل بتأثير عوامل غيبية سرية يستشعرها الجندي البسيط القريب من الطبيعة . إن هذا الرأي الذي لا يمكن التسليم به بلا جدال ، والذي يطيل تولستوى الوقوف عليه والكلام فيه يصبح حياً حين يتجسد في شخصية نابليون ، الانسان الذي اعماه ذكاؤه ، وحين يتجسد في شخصية كوتوزوف ، الرجل السمين الهادىء الذي ينتظر القدر وحين يتجسد في شخصية كاراتيف الجندي الذي يرضى بمكانه في الحياة والموت . وأن الامير آندره وبطرس يبحثان كلاهما عن الحقيقة ، وعليها يقيمان حياتهما بين القطبين المتعارضين ، في الطريق الذي يصل بين نابليون وكاراتيف ، فإما الأول فيبحث عنها بالعمل ، وأما في الثاني فيبحث عنها بالتأمل الفلسفي والأول يجد السعادة أخيراً في الحياة العائلية ، بعد أن علّمه كاراتيف في الوقت المناسب ، وكانت ناتاشا تسير نحو هذه الحقيقة وتميل إليها من تلقاء ذاتها ، لأن هذه الكونتيسة الصغيرة كانت كبطلة بوشكين (تاتيانا) على مقربة جداً من الشعب من الحياة . أن «الحرب والسلم» هي نشيد يتغنى بالحياة ، وما من كتاب يزيد عليه اضطرا ما بالحياة ، ففيه تنبض روسيا البطولية الهادئة ، في معارك ومشاهد عائلية ، في آلام واغان ، إنها «الياذة» و«أوديسا» روسيا .

أما في رواية آنا كارنين «فإن تولستوى يحاول أن يصور حياة العصر الحاضر ، ضمن إطار أضيق ، هو حياة البيئة الارستقراطية التي هي بيئته وهو المدينة والحقول . وهنا أيضاً في هذا الكتاب تقع على ألف ذكرى وذكرى شخصية يخلعها المؤلف من نفسه على شخصية ليفين . وهذا الكتاب هو في الحق روايتان متداخلتان رواية الحياة الزوجية التعيسة ورواية الحياة السعيدة ، الملأى بالمشاكل أيضاً . أن آنا كارنين تترك زوجها الفاضل القاسي المتكلف في سبيل الرجل اللامع فرونسكي ، ورغم أن هذا الاخير مخلص أمين كريم ، فإن آنا كارنين تمضي إلى العذاب والشقاء ثم إلى الانتحار . أن كثيراً من القراء ، قد تساءلوا لماذا هذه النهاية المؤلمة ؟ مع إن آنا لم تزد على أن أطاعت

غريزة الحياة ، واستجابت لها ، مثل ناتاشا سواء بسواء . وقد أوحى دوستويفسكي بجواب على هذا التساؤ ل . فقال : ليس لاحد أن يقيم سعادته على عذاب غيره ، وقد ضحت آنا بالزوج والطفل إلا أن تولستوى قد امتنع عن التحدث عن الأخلاق ، ولم يزد على أن صوّر لنا حياة امرأة عاشقة ، منذ أن بدأ قلبها يضطرب إلى أن لقيت مصيرها المفجع . وتبرز النية الاخلاقية بعض الظهور في العقدة الثانية من الرواية ، أي تلك التي تصور الحياة السعيدة التي يعيشها ليفين وكيتي . هنا تلاحظ التطور الذي حققه تولستوى بعد رواية «الحرب والسلم» فإن ليفين يعيش حياة عائلية ، ويقوم بعمل مفيد ، والعمل هو الذي كان تولستوى قد اقترحه على أنه غاية الحياة ومع ذلك فإن ليفين يتألم . وها هو ذا يتساءل لماذا أعيش ؟ ويعاني من الغم والقلق ما كان سيدفعه إلى الانتحار لو لا أن أحد فلاحيه قد مدّه بالجواب على ذلك السؤ ال حين دعاه إلى «الايمان بالله» ونحن نعلم من اعترافات تولستوى (التي كتبها عام ١٨٧٩ ونشرت عام١٨٨٢) إن هذه الازمة الداخلية إنما كانت أزمته هو نفسه ، وإنه خلال سنين طويلة عاشها في سعادة ظاهرية ، قد تزعزعت في نفسه ، على هدوء وصمت ، ألوان من القلق الديني والقلق الاجتماعي ، وإن النور قد انكشف له على يد أناس بسطاء وضعين «إن الايمان هو الذي يجعل الناس يحيون» لقد بحث عن هذا الايمان في كثير من الطرق والدروب ، وعرف الآن أن غريزة الشعب لا تخطيء .

وينبغي إذن أن يمضي الآن إلى اعتناق الدين الارثوذكسي وممارسته ، ولكنه أقل تصوفاً وأميل إلى النظر والاستدلال من أن يجد في الارثوذكسية راحة نفسه وطمأنينة قلبه . وها هو ذا يصل إلى هذه القناعة فيقول : لا بد أن يكون الدين صادقاً ما دام يجعل الناس يحيون ولكن لا بد أيضاً أنه تشوّه ما دام لا يرضي عقلي . وها هو ذا ينصرف إلى دراسة التوراة ، ويترجم الانجيل ، ويخرج منه كل ما يبدو له أنه دخيل عليه ، ولا يبقي منه في آخر الأمر إلا على المبدأ الوحيد ، أحب قريبك كما تحب نفسك وبمنطق قوى يستخرج من هذا

المبدأ عقيدة اجتماعية كاملة يحمل رسالتها ويصبح نبيِّها ، فمثلاً يحرّم الحرب لأنها مخالفة لمبدأ الحب ، لا الحرب فحسب ، بل كل مقاومة للشر («فأمدد له الخد الايسر») وكل عدالة انسانية («لا تحكم») ، وكل سلطة قائمة على العنف وعدم المساواة ، حتى ليمضي إلى أبعد من ذلك فيحرّم وجود الدولة . ثم يحّرم الصناعة «لأنها تخلق عبودية جديدة» ، ويحّرم تملك الأرض متى زاد الملك على قدرة المالك على العمل ، ويحّرم ما يسمى بمكتسبات الحضارة ، يحّرم الترف ، حتى ليحرّم الفن ، على الأقل من حيث لا يفهمه الشعب ، فيكون شرفاً .

وماذا يبقى بعد هذا التهديم العام الشامل ؟ يبقى لكل انسان هذا الواجب البسيط ، وهو أن يطعم اسرته من عمله في الارض . وإذا اتحد جميع الناس بالمحبة الاخوية لم تبق بعد ذلك مشكلة واحدة من المشاكل التي أدت إلى تأسيس الدول ، والجيوش والمحاكم . وأن تولستوى ليكرر هذه الاراء في غير ملال أو كلال ، في مؤلفات مفيدة كثيرة ، نشرت في الخارج ، ولكن كانت تتداول بروسيا سراً . وقد حرمه سان سنيود ، وظل يعيش غير حافل بالحكومة ، في ياسنايا بوليانا حيث كان يتوافد حجاج متحمسون يأتون من العالم بأسره ، وحاول أن يجعل حياته متفقة مع مبادئه ، فوزع أراضيه على أبنائه ، وكان يزرع حقوله بنفسه ، ويخيط احذيته بيديه ، إلا أن معارضة أمرأته في ذلك والصراع الذي قام في نفسه بين عواطفه العائلية وأوامر ضميره جعلت نهاية حياته درامة مؤلمة . وثمة صراع آخر كان يمزقه أيضاً ، فإن الفنان الذي فيه كان يثور على ما ذهب إليه من تحريم الفن ، وكان يستطيع أحياناً أن يقنع الاخلاقي الذي فيه بأن الفن هو انجع ما تتجه به إلى النفوس من موعظة حسنة ففي عام ١٨٨٦ أصدر رواية «موت ايفان ايليتش» ، وهو تصوير واقعي لحياة باهتة تشرق في ساعة الموت . وفي عام ١٨٩٥ أصدر قصة أخرى على نفس الموضوع وهي «صاحب العمل والأجير» ، وفي عام ١١٨٦ أصدر درامته «قوة الظلمات» ، وفي عام ١٨٨٩ أصدر روايته «سوناته كروتزر» ، فإن تأملات تولستوي الحزينة المؤلمة في الزواج أدت به إلى الحكم بالشر على

الارتباط بين الرجل والمرأة وإلى اعتبار هذا الارتباط هائلاً دون الوصول إلى ملكوت السماء . وحين تدرك الانسانية هذه الحقيقة ستنقرض ولا شك ، ولكنهاستنقذ ما في ذلك ريب . وبعد هذا المؤلف المرّ الذي يشتمل على دراسة اخاذة للحب الجنسي الشهواني الغيور يعود تولستوي ، إلى تفاؤله في آخر رواية كبيرة له ، وهي «البعث» ۱۸۹۹ ففي هذه الرواية كما في الرواية «قوة الظلمات» نرى مجرماً تلتمع في ذهنه فكرة التوبة والنهوض بالاعتراف والتكفير . وتلك فكرة من فكر دوستويفسكي كما ترون ، ولكن العذاء عند دوستويفسكي يشتمل على حب أكبر في حين أن تولستوي يوجهه نحو العمل المفيد . وفي هذه الرواية أيضاً وضع كثيراً من نفسه في شخصية الأمير نخليودوف بل لقد وضع فيه اعترافاً مقنعاً بخطيئة شخصية ارتكبها ، فالأمير نخليودوف هذا ظن نفسه انساناً شريفاً إلى أن أتى ذلك اليوم الذي تربع فيه على منصة الحكم كقاض محلف ، فإذا هو يتعرف في المرأة المتهمة ، المومس ماسلوفا ، فتاة طاهرة كان قد أغراها هو فضيعها . وهاهو يحاول ، باسم الواجب ، بدون حب ، أن يكفر عن خطيئته فيتبعها على طريق سيبريا . وتنهض هي أيضاً من الحضيض بالألم وترفض فضيحته وتنفح لكل من الاثنين حياة جديدة ، مفيدة . . وفي نهاية الرواية يسير بنا تولستوي في مناظر وبيئات لا نعرفها ، ويتراءى لنا أن النهاية طويلة . . ولكن فيها صفحات بلغت من الجمال ذروته ، فاستحقت الخلود .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصراع بين الفنان والمفكر انتهى إلى مصرع الفنان على يد المفكر وأن الصراع بين العواطف العائلية ونداء التقشف قد انتهى بأن تحطمت الروابط التي كانت تعقل تولستوي عن تلبية نداء التقشف .

ففي ۲۸ اكتوبر ۱۹۱۰ يهرب الشيخ من ياسنايا بوليانا يصحبه طبيبه ، بغية قضاء أيامه الاخيرة في عزلة . ولكن توافيه في القطار حمى صدرية فتصرعه ، وفي بيت رئيس محطة اوستابوفو ، انما لفظ اخر انفاسه ذلك الشخص الذي سماه تورجنيف «بالكاتب العظيم الذي انبتته الارض الروسية» ، هنالك في

ذلك البيت الصغير قضى محاطا ، دون ان يعلم ، بجمهور كبير من أسرته ، ومن الصحفيين ، ومن الفضوليين .

زادت العناية بدراسة عادات الفلاحين واخلاقهم بتأثير تولستوي ، وكانت قبل تولتسوي ايضا قوية . الا ان هذه الدراسة قد انتهت بحب اوسبنسكي (١٨٤٠ - ١٩٠٢) الذي كان شديد الحساسية وكانت حياته صعبة قاسية فأدى ذلك كله الى الجنون ، اقول ان دراسة أخلاق الفلاحين هذه قد انتهت بحب اوسنبسكي الى خلاف ما انتهي اليه غيره ، وها هو يعلن ان الفلاح انسان مادي ، متعلق بالارض تعلقا حقيرا ، كما انه من جهة اخرى محكوم عليه بالانهيار بتأثير الرأسمالية . الا ان هناك مؤلفاً اخر ظل رغم قسوة المحن التي مر بها (نفي الى سيبيريا) مؤمنا بالانسانية ، وهذا الكاتب هو كورولنكو (١٨٥٣ - ١٩٢١) انه يعلم ان ماكار المسكين (حلم ماكار) وهو سيبيرى كسول سكير سارق ، يشفع له البؤس ويشفع له الجهل . وهو يعرف ان القتلة في «دمدمة الغابة» اقل اجراما من ذلك السيد الفاجر . وان العسكري الذي يقود العدميين الى المعتقل ليس مسؤ لا عن عمله . ان شخوص هذا المؤلف اناس غلاظ ، يشبهون جدا حيوانات ونباتات هذه الارض الروسية التي صورها كورولنكو بكثير من الحب في قصصه و «رسومه السيبيرية» وان الطيبة والتسامح ليسيلان من كل صفحة من الصفحات التي كتبها هذا المؤلف ، لقد كان هو نفسه طيبا كريما ، فكانت حياته وقفا على مساعدة البائسين ، سواء في ظل الحكم السوفييتي وفي ظل الحكم القيصري .

التشاؤم نهاية عصر - ان هذه العافية الروحية التي نعم بها تولستوي وكورولنكو لهي امر استثنائي في نهاية هذا العصر التشائمة . ان الهواء لثقيل ، وان الرجعية لتظفر ، وان النفوس الكريمة لترى جهودها تذهب ادراج الرياح ، فتطوى على ذراتها حزينة كاسفة البال . ان اللوحات التي يقدمها لنا الروائيون لهي مناظر مجتمع يشرف على الموت ، راضيا بالموت ، غير مؤمن بامكان الانتفاض والانبعاث . المسكين («حلم ما كار») وهو سيبري كسول

سكير سارق ، يشنع له البؤس ويشنع له الجهل . وهو يعرف ان القتلة غي «دمدمة الغابة» اقل اجراما من ذلك السيد الفاجر . وان العسكري الذي يقود العدمين الى المعتقل ليس مسؤ لا عن عمله . ان شخوص هذا المؤلف اناس غلاظ ، يشبهون جدا حيوانات ونباتات هذه الارض الروسية التي صورها كورولنكو بكثير من الحب في قصصه و «رسومه السيبرية» وان الطيبة والتسامح ليسيلان من صفحة من الصفحات التي كتبها هذا المؤلف ، لقد كان هو نفسه طيبا كريما ، فكانت حياته وقفا على مساعدة البائسين ، سواء في ظل الحكم السوفييتي وفي ظل الحكم القيصري .

التشاؤم نهاية عصر ـ ان هذه العافية الروحية التي نعم بها توسلستوي وكورولنكو لهي امر استثنائي في نهاية هذا العصر التشائمة . ان الهواء لثقيل ، وان الرجعية لتظفر ، وان النفوس الكريمة لترى جهودها تذهب ادراج الرياح ، فتنطوي على ذراتها حزينة كاسفة البال . ان اللوحات التي يقدمها لنا الروائيون لهي مناظر مجتمع يشرف على الموت ، راضيا بالموت ، غير مؤمن بامكان الانتفاض والانبعاث . وانك لتلاحظ هذا الجو منذ جارشين الذي انتحر عام ١٨٨٨ ولما يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره . ان شخصياته أناس «مرضى في نفوسهم» معذبون ، كشخصيات دوستويفسكي الا ان المسيحية لاتقدم لهم حلا لمشكلتهم . وهو يصور لك الناس جميعا ميسرين للعذاب ، لا الناس فحسب ، بل كذلك الحيوانات وحتى النباتات فهؤلاء جنود يموتون دون أن يعرفوا لماذا يموتون ، وهؤلاء عمال يقومون بأعمال غير انسانية . وان المؤلف ليود ان ينتزع من الارض ، كمجنون «الزهرة الحمراء» هذا الشر الذي يلاحقه ويضطهده ، الا ان الشر أقوى من البشر .

اما مؤلفات تشيخوف وهي أقاصيص موجزة ودرامات ، (لم يكتب تشيخوف رواية طويلة) فانها لوحة كاملة للمجتمع الروسي قبيل الثورة . واذا استثنينا بعض الاقاصيص الفكاهية الملأى بروح النكتة والمفاجأة ، والتي تعود عامة الى عهد شبابه والتي لا تخلو مع ذلك من شيء من الكآبة ، فان الانطباع

الذي تخلفه فينا مؤلفات تشيخوف هو الحزن الكبير .

ولد انطون تشيخوف (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) من اب كان بقالا صغيرا في تاجازوج ، ودرس الطب في موسكو ، ومنذ ذلك الحين أخذ يكتب قصصا صغيرة حتى يكسب رزقه ويساعد زويه ، وقد أصابت قصصه هذه نجاحا سريعا ، فأصبح في غير حاجة الى ممارسة الطب فاستطاع ان يحقق حلمه ، وهو ان تكون له قطعة من الارض في الريف الا ان المؤسف ان السل قد اضطره الى مغادرتها بعد ذلك بقليل ، والى أن يعيش في القرم . وكان مريضا جدا يوم تزوج الممثلة اولفا كينبر ، ثم مات اثناء اقامته في الغابة السوداء بألمانيا ، وقد عرف في الاوساط الكثيرة المتنوعة التي ارتادها في العواصم وفي الريف بأنه يتمتع بموهبة الملاحظة على أرهف ما تكون موهبة الملاحظة وكان يمتاز الى ذلك بموضوعية هادئة نيرة تميزه عن معظم الروائيين الروس ، وبسبب هذه الموضوعية كثيرا ما اتهم بالبرودة وفتور العاطفة (وما علينا مع ذلك الا أن نقرأ الاقاصيص التي وقفها على سن الطفولة حتى تستشف وراءها ما يخفي من عاطفة حارة متدفقة ذلك انه لا يملك موهبة الانخداع التي تتيح لغيره ان يؤملوا في فضائل الفلاحين او جهد المثقفين . فالفلاحين (الموجيك) الذين يصفهم أناس قد احطهم البؤس والكحول وليس ايمانهم الا خرافات واوهاما ، وأخلاقهم أخلاق حيوانية . واما الاسر النبيلة فهي تعيش حياة وضيعة فقيرة في بيوتها المتداعية ، وليس لها من القوة ما يؤهلها للتلاؤم مع ظروف جديدة . واما الحياة العاملة التي يعيشها اصحاب الحرف ، واما الحياة الباذخة المحدودة التي يعيشها التجار الموسرون («ثلاث سنين») فهما كذلك خاليتان من أي مثل اعلى . صحيح أن هناك عددا كبيرا من الطلاب الذين يتحرقون شوقا الى أن يقفوا حياتهم على رسالة كريمة ، الا ان هذه الشعلة ستنطفيء سريعا لدى طبيب القرية، والذي ترهقه اعماله ويعيش منعزلا في بيئة جاهلة . وستنطفيء لدى الموظف والقاضي والاستاذ الذين سيغرقون في تفاهة المدينة الصغيرة ، والذين سترهقهم رقابة الوشاة الى السلطات فيتنحون عن الحياة وجلين

ويقيمون بعيدا عنها وفي معصم منها ، او يخضعون لرؤ سائهم ، فما يبحثون عن غير الترفيع والنياشين . وحتى المثقف الرفيع والفنان والعالم كلهم سجين الروتين ، وها هو الاستاذ (في حكاية مملـة) يجيب الفتاة التي تسألـه مبدأ للحياة ، ها هو يجيبها بقوله : «لست ادري» ان سيطرة الحياة اليومية التي تفسد كل شيء ، فما يصمد لها أي حب ، ولا يصمد لها اي مثل أعلى هي الموضوع الاساسي في مؤلفات تشيخوف ، مع الاعتقاد بأن كل جهد باطل .

ان ابطال تشيخوف لا يناضلون ولا يكافحون . وانما هم سيستسلمون ، ينتظرون توقف الحياة . . . ولا كذلك ابطال فيدرو سولوجوب الروائي ، الشاعر الدرامي ، (١٨٦٣ ـ ١٩٢٦) فانهم لا يستسلمون . انهم يكرهون الحياة . وان الرغبة في الموت لتملؤهم جميعا ، حتى الاطفال فهم («الموت بالجريدة») ، «الخطيبة في تياب الحداد» . والذين يعتقدون منهم بانهم يعيشون انما هم في الواقع أشباح اكثر من الاخرين ايضا ومن رواية «الشيطان المسكين» وهي رواية جميلة اخاذة ، ينتشر جو كريه عفن جو مدينة صغيرة ، مصنوعة من ملل وفودكا ، وخلافات ورسائل غفل ووشايات وأهم هذه الروائح رائحة ذلك الرجل الحقير الدنيء بيريد ينوف .

جـوركي : هنا تفهمون لماذا شعر الجمهور بشعور الخلاص ، حين سمع ، على حين غرة ، وسط هذه الكآبة العامة الشاملة ، رنين قهقهات وقحة يطلقها صعاليك جوركي . هؤلاء لم يكونوا تعبين من الحياة ، رغم البؤس ورغم الاخطار . كانوا يعضون بأسنانهم على الحياة عضا ، لا يقلقهم وسواس ولا يؤرقهم هم . ولد مكسيم جوركي ، واسمه الصحيح ألكسي يشكوف ، عام ١٨٦٨ ونشأ بنيجني ـ نوفجورود في اسرة صناع كانت أخلاقهم وعاداتهم قاسية وحشية . ومنذ العاشرة من عمره أخذ يتقلب بين جميع المهن ، ويتنقل من مدينة الى اخرى ، فعمل شيالا في اوديسا ، وخبازا في قازان ، ثم مستخدما في السكة الحديد بتفليس . وقد قرأ على سبيل العرض والصدفة ، روايات فرنسية بوجه خاص ، كروايات بالزاك ، ودوماس

الاب ، وبونسون دي تيراي ، ومنذ ١٨٩٢ نشر قصته : «ماكار تشودرا» في جريدة القوقاز . ثم استفاد من حماية كورولنكو ، وجاءه النجاح في سرعة صاخبة مجنونة ، في الخارج وفي روسيا جميعا . ولم يلبث ان الف ايضا مسرحيات تمثيلية فزادت في شهرته وذيوع صيته ان في القصص الاولى التي كتبها جوركي كثيرا من الرومانسية ، فلا المناظر ولا الشخصيات تشعرك بانها صادقة صدقا مطلقا ، الا ان هذه الرومانسية نفسها قد اعادت الى الجمهور الذي اتعبته التحليلات النفسية الدقيقة شيئا من الشباب والفتوة . فتحت الشمس الساطعة التي تملأ جوانب الفياقي الجنوبية ، وفي رياحها العاصفة العاتية ، يرسم لنا جوركي ، بخطوط قاسية ، رجالا مغامرين ، ومهربين ، رجالا لا يتراجعون امام عمل شاق ، ولا يحجمون عن الدعارة والفسق ، ولا عن الجريمة ولا يشعرون نحو الحياة الرتيبة المنتظمة التي يعيشها سكان المدن والقرى الا بالاحتضار انك لتشعر حتى لدى اسقط هؤلاء الناس ، بقوة جديدة . . .

الا ان ثورة داخلية قد تمت في نفس جوركي ، فأدت به من الفوضوية الى الماركسية ومن الرومانطيقية الى الواقعية في الوقت نفسه . فاذا بصعاليكه المتشردين يحل محلهم الان صناع وتجار كما عرفهم في طفولته ، وذلك في قصة «فوما جوردييف» ثم في قصته «ما تفيثي كوجيمباكين» ثم بعد ذلك بكثير (١٩٢٥) في قصته «قضية ارتامونوف» ، وهي قصة صعود وهبوط أسرة بورجوازية . لوحات قاتمة الالوان . ولكن في مقابل هؤلاء البورجوازيين المساكين الكبار والصغار ، ويرسم لنا جوركي العمال الذين يهيئون الثورة ، والذين يشبهون في حماستهم وحمياهم ابطال جوركي الاول ، ولكن على نظام وضبط . واما رواية «الام» فان غلبة السياسية عليها تسيء أحيانا الى صدق التصوير ، فتبعد بأشخاص هذه الرواية عن الواقع ، هذا الى جانب صفحات رائعة ، واما الرواية الاخيرة التي كتبها جوركي ، اعني «حياة كليم سامجين» فانها تصور الثورة وهي تسير . . .

ولكن الروائي لم يبلغ قوة التصوير الحي المثير في موضع من كتبه مثلما بلغها حين قص علينا طفولته هو . وما من شخصية من شخصياته الخيالية تفوق في قوتها وحياتها الجد الفظيع ، والاعمام السكيرين القساة ، والام الحنون المستسلمة ، في كتابه «طفولة» ولا من شخصية تلك الشخصيات الخيالية تفوق في قوتها وحياتها شخصيته هو نفسه ، كما نراه في هذا الكتاب الاول من ذكرياته وفي الكتب التي تليه ، انسانا حساسا متمردا . وانه لمن بعيد جدا انما نقل نفسه هكذا بالخيال الى مسقط رأسه وبعد اخفاق الثورة عام ١٩٠٥ اضطر أن يترك روسيا ، فيقيم ردحا من الزمن في نيويورك ، ثم يستقر في كابري . ويعود الى روسيا مرتين مرة أثناء الحرب ، وهذا ما أتاح له أن يشهد انتصار الثورة ، وأن يكون فيها المرافع عن القيم الفكرية ، ومرة اخرى يعود الى روسيا ليموت فيها عام ١٩٣٦ .

الواقعيون والرمزيون ـ ونذكر الان ليونيد اندرييف وهو مؤلف روائي ودرامي ، وكان يعتنق نفس الاراء السياسية التي كان يؤمن بها جوركي ، الا أن مزاجه يختلف عن مزاج جوركي كل الاختلاف ، لقد كان العالم الخارجي لايعنيه بقدر ما كان يعنيه سر المصير ، وكان يميل الى أن يخلع على أشخاصه قيمة رمزية ، وكان الموت يهوم مؤلفاته كما هوم فوق مؤلفات مسولوجوب . ومن أهم اثاره «قصة المشنوقين السبعة» وهي دراسة لاستجابات سبعة اشخاص حكم عليهم بالاعدام ، و«عبء الحرب» وهي قصة تصور انعكاس الاحداث الكبرى على صفحة نفس تافهة عادية .

وهناك آ . كوبرين ، وهو تلميذ جوركي ، وقد صور لنا بقوة عظيمة ذلك الجو الخانق في مدينة صغيرة من المدن التي يقيم بها الجنود («المبارزة») وصور لنا الحركة الهائلة التي تسود مرفأ كبيرا («جامبرنيوس») وصور لنا حياة المومسات الحقيرة الا ان الاسراف في التفكير النظري كثيرا ما يقطع سلسلة الحوادث على نحو غير مقبول وذلك مأخذ لا يمكن ان يؤخذ على ايفان بوبين . ولد ايفان بوبين عام ١٨٧٠ وحصل على جائزة نوبل للاداب ، وهو يمتاز

بقدرة على القرص اللاذع ، وبأسلوب دقيق واضح وملون ، وبنظرة موضوعية باردة . نذكر من آثاره رواية «القرية» و«سيد من سان فرانسيسكو» .

الى جانب الرواية الواقعية التي نصرها هؤلاء الروائيون ، ونصرها شامليف وزايتسيف وكثير من الروائيين ايضا ظهر في نهاية القرن التاسع عشر تيار معارض ، مرتبط باندفاعة الشعر الرمزي . وينبغي ان نذكر الان ميرجكوفسكي الذي لم تكن الرواية عنده الا عرضا للافكار التي تفيض بها اثاره ، في الشعر والدرامة والنقد ، وهي تتلخص في البحث عن توفيق بين المسيحية الثقافة الوثنية ، وبين الروح النازارية والروح اليونانية ، وان رواياته الثلاث التي تضمنها كتابه «المسيح وغير المسيح» تصور ثلاث مراحل من هذه المحاولة .

اما الشاعر بيلي فقد كان مشغولا بتلك المسألة الابدية ، اعني مسألة اتجاه روسيا نحو الشرق أو نحو الغرب ، ففي روايته «الحمامة الفضية» يذكر لنا النهاية المؤلمة التي ينتهي اليها رجل مثقف افتتن بجماعة من المتعصبين الشهوانيين الصوفيين . اما بطرسبرج «فهي في نظر بيلي مدينة ليست بذات وجود واقعي ، وانما هي ثمرة خيال بطرس الاول ، وانما سكان «موسكو» ، فليسوا هم ايضا الا مظاهر غامضة .

وما من شيء في نظر هذا الشاعر الحالم الحساس الا وهو وهم ، وقد كشف شاعرنا هذا عن نفسه في رواية عرض فيها سيرة طفولته وهي «كويتك ليتاييف» ، وفي كتاب اخر بعنوان «ذكريات شاذ» .

وأما الكسيس ريميزوف ، المعجب جدا بجوجول ودوستويفسكي ، فانه لم يتردد في الاختيار . فهو أمام هذا الحزن الثقيل الذي يصوره لنا في كتابيه «اخوات ـ الانتخاب» ، و «الجرح الخامس» لا يجد ملجأ غير التقاليد الروسية القديمة والحكايات والاساطير ، يؤ ولها تأويلا رمزيا ، ويخلع عليها شكلا مرهفا بديعا .

اذن فلقد كان الانتاج الروائي قبل الثورة غزيرا ومتنوعا . . . ومع ذلك فان عصر ازدهاره الاكبر كان قد انقضى . . . وستأتي الثورة للرواية بموضوعات جديدة . . .

* *

الفصل السابع

المسرح في القرن التاســــــع عشر

تاريخ المسرح في روسيا اقل بريقا من تاريخ الرواية ، ولقد أثرت الرواية الروسية في الرواية الغربية تأثيرا جبارا ، اما المسرح فلئن انتج اثارا قوية ، فانه لم يبدع اللهم الا من ناحية الاخراج المسرحي ، في عهد متأخر .

الدرامة التاريخية . لم تفقد الدرامة القومية سحرها يوما ، (منذ الرومانطيقية) في نظر الجمهور الروسي الذي صف لمسرحتي «بسكوفتيانكا» و«خطبة القيصر» للمؤلف الدرامي ، وصفّق لدرامات ككولينك ، وصفق خاصة للدرامات الثلاث التي كتبها الكونت الكسي تولستوي وهي : «موت ايفان» و «القيصر فيدو» «القيصر يوريس» (١٨٦٧ ـ ٧٠) . ان قالب هذه المآسي التي كتبها تولستوي هو عين القالب الذي كب به شيلر مآسيه ، وان تأثير شيلر لواضح في آثار تولستوي هذه ، وكذلك تأثير شكسبير وبوشكين ، الا ان هذه الآثار بما تمتاز به من تصوير حي للماضي ، ومن دراسة عميقة للطباع ، ومن جمال شعري ، تستحق ان توضع في مصاف النماذج التي اخذتها ولن يضير تولستوي ان تقارن درامة «القيصر بوريس» بدرامة بوشكين بوريس جودونوف ، ولكن لئن كان تولستوي لم يؤت ما اوتيه بوشكين من بوارق مضيئة سريعة فانه يمتاز على بوشكين في احساسه بالمسرح . وهو يصور بوريس على النحو التالي : انسانا ما يكاد يخامره تأنيب الضمير ، ويهزه الطمع

والصالح والقوي في آن واحد ، حتى يلتفت بأسره الى العمل . واما القيصران الاخران فقد أجاد تحليل طبعيهما أكثر من ذلك أيضا : من اروع وجه ايفان المرعب الذي يتردد ، وهو على حافة قبره ، بين تأنيب الضمير والزهو ، بين الخوف من الجحيم والرغبة في الدعارة ، ما أروع صورته وقد بلغ من شدة التوحيد بين شخصه وبين امبراطوريته انه يجعلها تشارك في ذبذبات نفسه ، ويذلها حين يذل نفسه ، بينما ابنه فيدو ـ الطيب الضعيف النقي يذكرنا بانقى الوجوه التي طلع علينا بها دوستويفسكي . وقد اوتى تولستوي قدرة هائلة على اختيار مشاهد تفاجأ الخيال ، وكان يعرف كيف يخلِّف في النظارة اثرا قويا ببيت من الشعر أحسن صكه . . . ان هذه التراجديات ، وقد ساعدها ترف عظيم في الملابس والستائر ، عدت من ألمع مشاهد المسرح الفني بموسكو .

المسرحيات التي تصور الاخلاق والعادات ـ على أن الكوميديا التي تصور الاخلاق والعادات كانت أحضر للموهبة الروسية ، فبعد نونفزين في القرن الثامن عشر وجويبوييدوف في العصر الرومانطيقي ، انصرف جوجول بطبيعته الى هذا الفن وسار في هذا الطريق . وقد جرّب نفسه أولا في مسرحيات صغيرة هزلية مثل : «صليب القديس فلاديمير»و«الزواج» ، وهذه الاخيرة دراسة فكهة لبيئة «البائعين» «ولخطيب متردد لا يعرف كيف يعزم أمره ، وفي مسرحية «المفتش» يصل جوجول الى درجة امتلاك ناصية هذا الفن . وفكرة هذه المسرحية قد اوحى بها اليه بوشكين يوم قص عليه نادرة حقيقية : وهي تمثل شابا يمر بمدينة صغيرة ، ويشتبه في أمره الموظفون ذوو الضمير القلق ، ويعتقدون انه مفتش مكلف بمراقبة أعمالهم خفية . وها هم يحتفلون به ، ويتبارون في اكرامه ، ثم لا تظهر حقيقة الامر الا بعد سفره . وان ما في هذه العقدة من قوة هزلية اخاذة وما ، في تصوير الشخصيات من فن كاريكاتوري رائع كل ذلك لا يخفي الالوان القاتمة التي تصطبغ بها هذه اللوحة . فجميع الموظفين ، وعلى رأسهم الحاكم ، أناس لا أخلاق لهم ولا ذمة ولا ضمير ، وانهم ليبلغون من ذلك مبلغا يبعث على الاشمئزاز الى أبعد حد . وقد كان

تأثير هذه المسرحيةكبيرا جدا ، الى درجة ان المؤلف نفسه قد هاله الأمر ، فلم يسعه الا ان يعلن بانه لم يكن له من غاية الا ان يضحك الجمهور .

ويكاد يكون السكندر اوستروفسكي (١٨٣٣ ـ٨٦) الكاتب الروسي الوحيد الذي وقف كل نشاطه الأدبي على المسرح : ولقد قدم لنا مسرحيات تاريخية على غرار شكسبير ، وترك لنا حكاية درامية جميلة («سنيجور وتشكا») ، إلا أن القسم الاساسي من آثاره انما هو خمسون مسرحية هزلية مما يصور الاخلاق والطباع . وانه لكاتب مسرحية هزلية مما يصور الاخلاق والطباع . وانه لكاتب مسرحي حقا ، عرف كيف لا يظهر من نفسه شيئا ، وكيف يمتنع عن ابداء اية نظرية ، واخلاقه بسيطة جدا ، هي الشرف والحس السليم . والعقدة عقدة بسيطة ايضا . فانما هو يدرس طباعا واخلاقا . . لقد كشف لكثير من الروسيين عن بيئة «البائعين» بموسكو عن هذا العالم القائم بذاته الذي احتفظ في حيّة القديم وراء الموسكف (حيث ترعرع اوستروفسكي) بقوانينه الخاصة به ، وبلغته ، وظلّ ازاء الارستقراطية المتأثرة بأوروبا يعيش كما كان يعيش في ايام «دوموستروي» . على أن «البائع» ٧١/ ٧٢ فبحبه للمال يعرف كيف يجمع بين قلة الذمة التي تمتاز بها التجارة الشرقية وبين الحيل الحديثة ، ومن جملتها الافلاس الكاذب . وهو لا يغتني لغاية البخل ، بل لغاية التباهي . . . وماأجمل الصورة التي رسمها لنا المؤلف لاحد هؤلاء البائعين الذي يشبه مسيو بجوردان ، وقد انتفخ زهوا ، واطمأنت نفسه لانه قص ذقنه ، ولأنه يشرب الشمبانيا . إن البائع يحتقر جميع القيم التي لا يمكن أن تقدر بنقد . وهو خال من اية رغبة في الاطلاع الفكري ، ولا يعنى بتعليم أبنائه ، ويحتفظ بجميع الاعتقادات الخرافية الوهمية القديمة . وانه ليقيم نفسه حاكما مستبدأ رهيبا على اسرته ومستخدميه ؤ وامرأته التي تغمرها الحليّ والجواهر قد تزوجت بارادة ابيها ولم تزد على أن استبدلت سيدأ بسيد وقلّ ان تثور او تتمرد . ومع ذلك فان كاترين العاطفية العنيفة («العاصفة») التي تختنق بين حماة ظالمة مستبدة وزوج

ضعيف لا حول له ، تستجيب لصوت رجل يغويها ولكنها ماتلبث ان يمزقها تأنيب الضمير ، فتعترف بخطيئتها وتنتحر . ذلك أن المرأة لا تتصور حياة اخرى غير الحياة التي تفرضها عليها التقاليد ، ولا تتصور مهربا آخر من سجنها غير الواجبات الدينية ، وأغنيات الخادمات . والمرأة اذا تزوجت لغير طبقتها كانت شقية ايضا («لا تجلس في عربة غيرك») . على أن اوستروفسكي لا يعامل الطبقات الاخرى بتسامح أكبر . وهاهو في مسرحياته «الحدقة» ، «الغابة» ، «الذئاب والشياه» يطوف بنا في بيوت من بيوت صغار السادة في الريف ، فيرينا نساء مستعبدات منافقات يخفين وراء مظاهرهن الكاذبة ماضيا مضطربا ، او غراميات عجوزة ، او طمعا وقحا والموظفون هم ايضا عبيد

المال . وانك لتشعر ان حب المؤلف منصرف الى رجال المسرح الذين يظهر عيوبهم المضحكة ولكنه يظهر ايضا مايتمتعون به من اخلاص وتنزه عن المنفعة («الغابة») ، ومنصرف ايضا الى الشواذ مثل ليوبيم تورتسوف في مسرحية «الفقر ليس رذيلة» الذي يحمل قلبا كريما رغم سقوطه . على أن مسرحيات هذا المؤلف قلّما تخلف في النفس اثرا مرًّا فكثيرا منها يشرق في الخاتمة ، ويزول عنه هذا الطابع القاتم ، وهي على كل حال مزيج محكم من الهزل المضحك والحزن المؤلم . اما لغتها فسائغة عذبة رائعة ، فيها كثير من التعابير الشعبية . وخير هذه المسرحيات مازال مدرجا في قائمة المسرحيات التي يستمر تمثيلها . وهناك مسرحية اخرى لم ينقطع تمثيلها منذ عام ١٨٥٥ ، وهي «زواج كنشنسكي» من تأليف سوخوفو ـ كوبيلين . وهي تدين بذلك لقوة عقدتها وجمال حوارها .

وعلى غرار الرواية عني المسرح بالاخلاق الفلاّحية . فمسرحية «حكم الناس ليس حكم الله» من تأليف بوتيشكين (١٨٥٤) ومسرحية «مصير مر» (١٨٥٨) من تأليف بيزمسكي قد تقدمت في هذا المضمار «قوة الظلمات» لليون تولستوي (كتبت عام ١٨٨٦ ، ولم تمثل في روسيا إلا سنة ١٨٩٥ ، وذلك بعد أن مثلت منذ عام ١٨٨٨ بباريز في مسرح انطوان) ، التي لعلها اقوى

مسرحية روسية على الاطلاق . . . انها لوحة تمثل اخلاق الفلاحين وعاداتهم ، وتطلقنا دون أن تشعرنا بما بذل صاحبها من جهد لجمع هذه المعلومات ، على عادات الفلاحين ، واعيادهم ، ولغة قرية من منطقة تولا ، الا أن هذه المسرحية هي بوجه أخصّ دراسة سيكولوجية يتجاوز مداها زمان المسرحية ومكانها ان تولستوي يرينا في هذه المسرحية كيف سار الشر خطوة خطوة سيرا لا محيد عنه في نفس جرّها الضعف الى ارتكاب خطيئة اولى ، فاذا هي ماتنفك توغل في الوحل أكثر فأكثر ، الى ان تتحرر بالاعتراف والتفكير . وان للشخصيات التي يعرضها لنا فردية قوية ودلالة رمزية في الوقت نفسه : فالعجوز ماترينا ، الفلاحة المنافقة الطمّاعة التي تتصور الجريمة تلو الجريمة وشفتاها تتحركان دائما بالصلاة والدعاء تمثل مبدأ «الشر» في حين أن الخير يتجسد في اكيم البسيط الساذج الى حد يكاد يكون فيه مضحكا . وهذان الشخصان يتنازعان نفس ابنهما ، كما يتنازع الخير والشر في كل نفس انسانية . وهكذا فان تفكير تولستوي الديني لا يعّبر عن نفسه ابدا تعبيرا مجردا ، ونلاحظ ان العنف المفجع في تسلسل الحوادث لا ينقطع في لحظة من اللحظات ، وهو يبلغ من الواقعية احيانا حدا لا يكاد يطاق ، وذلك في مشهد قتل الابن مثلا . ومن المؤسف اننا لانجد هذه الموضوعية نفسها في مسرحية «والنور يلمع في الظلمات» ، وهي مسرحية طويلة ، شائعة ، خاصة من ناحية ما تعرضه من سيرة المؤلف نفسه . وفي مسرحية «الجثمان الحيّ» نحرر ايضا آلام تولستوي ، وحاجته الى الهروب . ولنذكر ايضا هذا الامر غير المتوقع : وهو أن تولستوي قد ألف كذلك ملهاة (مسرحية هزلية) يسخر فيها من مذهب الرومانسيين ، وهي «ثمرات التعليم» ، وهي تبرهن لك على ما تمتاز به مواهب تولستوي من تنوع وغنى ، أن كنت في حاجة الى مثل هذا البرهان . . .

ومما يؤسف له حقا أن تورجنيف سرعان ما انصرف من المسرح ، وزهد به . وان مسرحياته التي كتبها في شبابه ، ولاسيما «شهر في الريف» ،

والتي تكاد تخلو من العقدة ، ولكن تمتاز برهافة سيكولوجية ، تعرف كيف تخلق جوا . وهي تذكرنا بتشيخوف .

واما مسرح تشيخوف فهو يتناقص ، كما تتناقض اقاصيصه واكثر ، مع مجموع الانتاج الروسي . فالانتاج الروسي جملة يجب أن يمضي بالمضحك الى درجة الكاريكاتور ، وان يمضي بالألم الى حد الصراخ ، ويجب ان يدافع عن رأي او قضية (ولكن هذا الدفاع كان في المسرحيات اكثر اعتدالا منه في غير ذلك ، لان المسرح كان مراقبا من قبل السلطات مراقبة دقيقة) ، في حين أن مسرحيات تشيخوف لا تبالغ في التصوير بألوان صارخة ، وهي اقرب الى الايحاء والتلميح منها الى التعبير والتعليل . وهي وان كانت لا تخلوا من عقدة ، ولا تخلو كذلك من عناصر فاجعية ، فان الشيء الاساسي فيها هو مايتم في اعماق النفوس ، والنفوس لا تنفتح إلا على خجل واستحياء . والحوار فيها ادنى الى القصد والاعتدال ، وقلما نرى فيها انفجارات عاطفية عنيفة ، ولا تكاد نقع على مناقشات فكرية ، ولكنها تنطوي على قوة ايمائية هائلة . نذكر من هذه المسرحيات « La mouelte » . (١٨٩٦) وهي تصور بيئة كتاب وممثلين و«الاخوات الثلاث» (١٩٠٢) وهي تصور مدينة صغيرة ناعسة و«العم فانيا» (١٩٠٠) و«حقل الكرز» (١٩٠٤) وهما تصوران انهيار النبالة الريفية . ومن جميع هذه المسرحيات تتصاعد روائح سآمة غامضة ، ومياه متفسخة ، واوراق ميتة . . وهذه الروائح التي تتصاعد من كثير من اقاصيص تشيخوف . وابطاله لا يملكون من الشجاعة ما يؤ هلهم للاستجابة ورد الفعل . فالاخوات الثلاث لن يسافرن ابدا الى موسكو والعم فانيا وابنة اخته سيستمران في كل مساء على القيام بعملهما الممل الحزين ، اعني اجراء الحسابات المتعلقة بممتلكاتهما ، واصحاب حقل الكرز تظل تملأ رؤ وسهم الاوهام عن امكان الاحتفاظ بالارض الى أن يأتي ذلك اليوم الذي سقطت فيه اولى اشجار الكرز تحت فأس المشتري . . . وانه لعالم ينتهي .

ويرى كثيرون ان تشيخوف قد اثر في جوركي ، فاتجه هذا الى المسرح مبكّرا : وجوركي يصف هو الاخر ضيف المدينة الصغيرة («اصحاب الحرف») ، ويصف عالم الفنانين «الراحلون الى القرى» و«ابناء الشمس» ، وهما نقد للطبقات ذات الثقافة العالية تذكراننا ب «قصة مملّة» ، إلا أن مزاج جوركي مزاج حاد متطرف ، ظامىء الى التعبير عن آرائه ومعتقداته ، في حين ان تشيخوف رجل متحفظ معتدل . واحسن آثار جوركي في المسرح مسرحيته «الاراضي الواطئة» (١٩٠٢) ، فمن ملجأ ليلي قذر امتلأ بوجوه للمفصلة تخرج صرخة ايمان بمستقبل الانسانية . وان الدرامات الاخيرة التي كتبها جوركي قبل الثورة وبعدها كان يزداد اتجاهها السياسي وضوحا ، يوما بعد يوم .

وقد ألف ليبويند آندرييف مسرحيات متنوعة جدا ، إلا أنها مشبعة كلها بعين التشاؤم الذي يشيع في اقاصيصه . فمسرحية «سافا» (١٩٠٦) في ثورتها على القدر تريد أن تنتزع من الناس ايمانهم وتهيب بهم ان يتأملوا بؤسهم وشقاءهم وجها لوجه «عريا على هذه الارض العارية» . واما دراماته الرمزية فهي اقرب الى الادعاء الفلسفي منها الى العمق الحقيقي .

واما الدرامات الرمزية الجميلة التي كتبها بلوك («الفارس» ، الوردة والصليب «المهرّج» ، الخ) فقد كتبت للقراءة لا للتمثيل ، وهي ادنى الى الشعر ، منها الى المسرح . ومثل ذلك يقال عن تلك التراجيديات النبيلة التي كتبها فياتشسلاف ايفانوف مثل «تانتال وبروميثوس» ، وهي تستمد من اليونان شكلها وموضوعها معا .

وان عرضا لتاريخ المسرح الروسي ، مهما يكن موجزا ، لا يمكن ان يغفل عن ذكر تلك الاخراجات الرائعة التي يعود الفضل فيها الى ممثلين ومخرجين ، ولاسيما عن دور المسرح الفني بموسكو الذي أسسه منذ عام ١٨٩٨ ستانيسلافسكي (وهو الاسم المستعار لرجل الصناعة ك . آلكسييف) ونيميروفتش وانتشنكو . فان هذا المسرح ، بما يعد اليه من اخلاص تام للاثر

الممثلّ ، وبما يتمتع به من تجانس فرق التمثيل فيه ، وبما يلتزمه من دقة في الستائر تمضي الى حد الاصلية ، قد مثّل ومازال يمثل الى الآن مسرحيات لألكسي تولستوي ، و«قوة الظلمات» و«الأراضي الواطئة» تمثيلا لا يمكن ان ينسي . ومع ذلك فان الواقعية التامة قد ظهر اتجاه يعارضها في مطلع القرن العشرين اتجاه يمضي الى تبسيط الأطر ، وفسح المجال للخيال . وان اسمى ميير هولد وفاختانجوف معروفان في اوروبا كلها .

الفصل الثامن

الشعر بعد الرومانطيقية

اصبح الأدب الروسي ، ابتداء من عام ١٨٤٠ ، ساحة حرب ، واصبح الشعر سلاحا . ومع ذلك بقي عدد من الشعراء من تتلمذوا على بوشكين رفضوا ان يمسكوا «بالمقشة لتنظيف الشوارع» ، وكان ثمت رآيان : فبعضهم يرى ان الشاعر مواطن قبل كل شيء ، وبعضهم يرى أن الشاعر فنان قبل كل شيء . وليس غريبا ان يكون الاولون هم التحرريون الذين يعيشون الى جانب الشعب ، وان يكون الشعراء الذين يذهبون الى الرأي القائل بان الفن للفن هم الارستقراطيون المحافظون . ولكن لئن كانت الحياة أقسى على الاولين منها على الآخرين ، فان المجد قد جاء لهؤلاء الاخرين يسعى ، بينما ظل الاولون مجهولين او عرضة لهجوم الناس .

شعر النضال : ـ اكبر شعراء النضال هو نيكولا نكرازوف (١٨٢١ ـ٧٧) . وحينما وقف دوستويفسكي على قبره ، وكان لا يشاركه آراءه ولكن يعجب بموهبته ، فوضعه قريبا من بوشكين ولرمونتوف ، صرخ الجمهور في حماسة : «انه أعلى انه اعلى» . وهو ينتمي الى النبالة الصغيرة ، وقد ترعرع في الريف ، وأثرت في قلبه قسوة والده عليه ، ومشاهد بؤس الفلاحين تأثيرا كبيرا . وقد رفض ان يصبح ضابطا ، فعاش حياة قاسية الى ان سهلت له صداقة بيلنسكي ان يصبح صحافيا ، فكان مديرا لجريدة ـ «المعاصر» ، ثم ل«حوليات الوطن» ، وكان يحسن استقبال المواهب الناشئة ويشجعها احسن تشجيع .

وقد اطلق هو نفسه على شيطان شعره اسم «شيطان الانتقام والمبارزة» وقـال يخاطب الشعب : «ايه شعبي» ، لقد اصطفيت لاغني آلامك . «وكان قلّما يعنى في شعره بالانفعال الشخصي ، ماعدا الشفقة على هذا الشعب البائس . وقد صور آلام المدن ، آلام الموظف الصغير الكادح ، آلام العامل الذي يشقى في بناء خط حديدي لن يفيده يوما ابدا ، وصور آلام الارياف ، آلام الفلاح ، آلام الفلاّحة التي تعمل في الحقل والبيت ، والتي تمضي الى الغابـة لتجمـع بعض الحطب فتنام هنالك نومتها الأبـدية بـين أكوام الثلـج («الجليد في ٧٧ الأنف الاحمر») . «من ذا الذي يستطيع ان يعيش سعيدا في روسيا ؟ «ذلكم هو عنوان اكبر قصيدة نظمها نكرازوف .وقد ظلت هذه القصيدة ناقصة لم تكتمل ، إلا أن القارىء يعلم حق العلم ان مساعي الفلاحين السبعة الذين تدفعهم أمنية من الاماني الى البحث عن رجل سعيد ستظل بلا جدوى . . . ان اسلوب نكرازوف لا يخلو احيانا من الركاكة والاسفاف ، ولكنه في بعض الاحيان يبلغ ذروة الاشراق والمؤ ثر .

وقد سار نارسون على آثاره ، ولكنه مات في الخامسة والعشرين من عمره عام ١٨٨٧ كان مصدورا ، وكان يشعر بانه قريب من الموت ، فكان يشعر بحاجة عارمة قوية الى الحياة والحب . وكانـت هذه الحاجـة تصطـرع في نفسـه مع تصميمه على الانصراف الى قضية الضعفاء . وهذا الاصطـراع يضفـي على سكره في بعض الاحيان رنينا مؤلما . وبعد فمن هذا الشعب نفسه الذي يرثي لحاله نكرازوف ونادسون يرتفع صوت نيكيتين (١٨٢٤ ـ٦١) الذي اطلقـوا عليه اسم كولتزوف الثاني ، لاسلوبه الشعبي واوصافـه الأخـاذة . . إلا أن نيكيتين هذا يشعر بآلام الفلاح شعورا يختلف في قوة مرارته عن شعـور كل شاعر آخر غيره . . .

وقد عمد انصار السـلافية ، هم ايضـا الى استخـدام الشعـر للدفـاع عن معتقداتهم . ولكن لئن كانت اشعار خومياكوف قوية ، فانها لا تمثل إلا جانبا ثانويا من آثاره . وفي مقابل ذلك نرى تيوتشيف قادرا ، عند الاقتضاء ، على

التعبير عن آراء سياسية ، إلا أن الفن الصرف هو ميدانه الحقيقي .

الفن الصرف .ـ ان تيوتشيف الذي ولد عام ١٨٠٣ كان من جيل بوشكين . إلا أن اول ديوان له لم يظهر إلا عام ١٨٥٤ ، ولم يمت إلا عام ١٨٧٣ . وكان من السلك الدبلوماسي ، فعاش مدة طويلة في المانيا ، وأخذ فلسفة عن شلنج وشوبنهاور . وكان يصبو الى هدوء جوته ، وكان يشعر انه قريب من تشاؤم هايني . وقد ترجم في شعر روسي جميل كثيرا من آثار الشعراء الالمان . ووقع ابان كهولته في غرام عنيف اغنى شعره وندّاه . ومع ذلك فانه يحتفظ بشيء من الحياء الخفي ، ويؤلمه شعور قوي يعجز الالفاظ عن التعبير . وكان حيثما يوجّه بصره يرى سرا : فنفس الانسان سرّ ، والطبيعة سرّ والشاعر يقبل هذا الوجود الذي هو جزء منه . ولكنه بدلا من أن يرى فيه الانسجام المطلق والتناسق يشعر بما يغفو فيه من فوضى واضطراب ويحسّ مافيه من هوّات سحيقة ، ويحسّ ما في نفسه هو أيضاً من هوّات سحيقة ، ويحس بما يكمن في اللاشعور من ثورات عنيفة يضبطها العقل ضبطاً يوشك ان يفلت وينفجر في كل لحظة . . .

إن هذا الشعر الرصين ، الغني بالأفكار ، المصقول ، الذي عني صاحبه بأحكام شكله وحسن صياغته ، كان لا بد له ان ينتظر ظهور المذهب الرمزي حتى يقدر حقّ قدره ، بل إنه لم يقّدر حق قدره إلا من قبل نخبة من الناس حتى بعد ظهور الرمزية ومن بين الشعراء الذين دانوا بمبدأ الفن للفن ليس هناك إلا شاعر واحد عرف كيف يؤثر ، ومازال ، في عدد كبير من القراء ، وهو الكسي تولستوي (١٨١٧ ـ ٧٥) ومع ذلك فهو يمتنع عن تبني أي اتجاه من الاتجاهات ، ولا يهاجم إلا الشعر ذا الاتجاه وذلك باسم الاتجاه الفني الذي هام به هذا الشاعر ذو الروح المرهفة الحساسة . وكان يسود لو يقف حياته كلّها على عبادة الفن هذه . إلا أن معونة للاسكندر الثاني الذي رفيق طفولته ، جعلته لا يتحرر إلا عام ١٨٦١ ومنذ ذلك الحين أخذ ينتقل بين الغرب وروسيا ، ولا يعيش لغير الشعر ، ولغير ذلك الحب الكبير الذي

ملك عليه نفسه ، عطرّ حياته ، وتتألف آثاره من الدرامات الثلاث التي سبق ذكرها ، ومن رواية تاريخية على غرار روايات والتر سكوت خصصّها أيضاً لعهد ايفان المرعب ، ثم «الأمير سيربريانـي» ومجموعـة كبـيرة من القصائـد الوجدانية الغنائية . وإنه ليذهب مذهـب الحلـول مثـل تيوتشيف ، ولـكن الحلـولية التـي يؤ مـن بهـا مشبعـة بالثقـة والتفـاؤ ل : خرير المياه ، وزفـير الأزهار ، وكل شيء يعدني بجمال آخر بعيد» . والفن والحب هما اللـذان يملآن الانسان بهذا الجمال اللانهائي . على إن هذه المثالية لم تمنع تولستوي من الإحساس المرهف بالعالم الخارجي ، فهو شديد الانتباه إلى خصائص مناظر بلده ، وهو ذو قدرة عظيمة على السخر والمرح (لقد كان ألّف مع أبناء أعمامه وهو فتى صغير جداً تلك الجمل المأثورة العذبة عن «فوزما بروتكوف») . أما قصائده البطولية والشعبية عن روسيا القديمة فهي أشبه بـ «أسطورة العصور» على ألوان برّاقة آخاذة .

ونـذكر الآن الشاعـر فت (١٨٢٠ ـ ٩٢) ، وهـو شاعــر وجدانــي فحسب ، ولعله أقرب جميع الشعراء الروس إلى الغنائية المحضة ٧٩ ، لما في أسلوبه من رنين موسيقي فالأصوات في شعره توحي أكثر مما تقول الكلمات . ومع ذلك فقد كان شاعرنا هذا إنسانا عمليا واقعيا . كان ابنا لألمانية (ولـم يستطع أن يحمل اسم أبيه شفشين إلا متأخرا) وكان نمـوذج الملاّك العمليّ ، وكان فخوراً بنتائج استغلاله واستثماره ، وبعد أن نشر في شبابه أشعـاراً ، هجر الشعر وانقطع إلى العمل ولـم يعد إلى الشعر إلا متأخراً فترجم حافظاً وجوته وهايني ، ونشر أجمل دواوينه : «نيران المساء» . وقد أخذ نظريته إلى الطبيعة من تيوتشيف وتولستوي في آن معاً : فهو يشعر بالسر ويرتعد ولكنه يشيح بوجهه عن الالآم ليتذوق جمال الساعات التـي يتصـل فيهـا بالطبيعـة اتصالاً خفياً ، فتنصهر نفسه في رعشات الربيع ، وتذوب في أعشاب الغابة عند الصيف ، وتهتز على أشعة النجوم في الليل ، وإنه لشاعر الليل قبل كل شيء .

وهنـاك آبولـون ما يكوف (١٨٢١ ـ ٩٧) ، وقـد افتتـن باليونـان القديم ، فكتب درامة عن عصر فيرون ، كما نظم قصائد خفيفة عذبة على

مثال آناكويون ، وترجم بعض الآثار وهناك بولونسكي (١٨٢٠ ـ ٩٨) ، وهـو يشعـرك بأنـه ذو ميول تحـررية ، إلا إنـه انصرف خاصـة إلى التأمـل والذكرى . وهناك الدوق الكبير كونستانتان كونستانتينوفتش الذي كان يوقع قصائده : ك . س ، والذي يمتاز ببساطة جميلة رائعة . وهناك آبوختين ، وكان ينجر في الغالب إلى موضوعات مسفّة تافهـة . وهنـاك سلوتشفسـكي وكانت تواتيه في بعض الأحيان دفقات خيالية مفاجئة تقّربه من الرمـزيين . وهؤ لاء على كل حال شعراء من الطبقة الثانية .

الرمزية : ـ يجب ان ننتظر بتاشيرعام ١٩٠٠ حتى نشهد تجديداً في الشعر . لقد ولدت الرمـزية في الغـرب ، وانتشرت في أوروبـا كلهـا ، كما انتشرت الرومانطيقية قبل ذلك بقرن ، داعية أوروبـا ، كالرومانـطيقية أيضـاً ، إلى الثورة على سيطرة الاسفاف الشعـري ، والمادية النفعية ، وذلك على لسـان بودلير وفرلين ، وبو وايلد ، وهاوتمان وسيتفان جورج ، ولقد استقبل هذا الاتجاه في روسيا بأسوا مما استقبل به أيضاً في غير روسيا ، لأن الواقعية وروح النضال كانت قد اجتاحت الشعر في روسيا وسيطرت عليه سيطرة عظيمة . وسرعان مانعت شعراء المدرسة الجديدة بأنهم رجعيون ، وكان لا بد من تأييد أكبر شعراء هذه المدرسة للثورة حتى يظهر أن هؤ لاء الغربيين يملكون روحاً ثورية قوية .

في عام ١٨٩٥ ظهر في روسيا ديوان شعري عنوانه «رمزيون روسيون» يحتوي عدا ما يحتوي عليه من ترجمات عن فرلين وبو وماترلنك ، على أشعار مذيلة باسم بربوزوف وغيره من الاسماء التي لا يعرفها وأعقب هذا الديوان ديوانان آخران . وفي هذه السنة نفسها ظهر الكتاب الشعري الذي لم يتورع بربوزوف من أن يعنونه «عيون آثار» ، وكذلك ظهر كتاب «في اللانهاية» من

نظم بالمونت (وقد سبقه كتاب ، «تحت السماء الشمالية» عام ١٨٩٤) . وفي السنين التي أعقبت ذلك بذل بريوزوف وبالمونت وميرجكوفسكي ومدام هيبيوس وسولوجوب جهوداً جبارة حتى يستطيعوا أن يجعلوا الجمهور المستنكر أو الساخر يقبل وجهة النظر الجديدة ، واجتمعت اسماؤهم جميعاً عام ١٩٠١ في الحولية الشعرية «أزهار شمالية» ، ثم في مجلة «الميزان» . على أن هؤلاء الشعراء الذين وحدَّت بينهم سخريات الناس وأطلقت عليهم جميعا اسم «المنحلين» والذين يتفقون فيما بينهم على المطالبة بحقوق الفن ضد «الميل» يختلفون في أمزجتهم اختلافاً كبيراً . . . فبعضهم يثورون قبل كل شيء على ما وقع فيه كثير من المتقدمين عليهم من إهمال للصيغة وركاكة في الأسلوب وضعف في الأداء ، فتراهم ينصرفون إلى تجويد الأسلوب ونظم أبيات محكمة وصعبة . وهم يستعملون بحوراً جديدة ، وقوافي أدني إلى المرونة ، كما إنهم لا يتورعون عن الاقواء . وإنهم يبحثون عن الصورة النادرة ، ويسعون إليها كل السعي . وألمع هؤلاء بالمونت ، ولقد بلغ من ولعه بالموسيقى الشعرية الآخاذة إنه لم يدع للعاطفة مجالاً كبيراً في شعره ، وكان يلعب بالأضواء والصور في شعره لعباً بارعاً ، وكان يفوق عزفاً لذيذاً ممتعاً في الموسيقى ، أما فالير بربوزوف فلم يكن يملك هذه السهولة ، وإنك لتشعر إذ تقرأ شعره إنه يلتذ التغلب على الصعوبات ، ولكنه يبلغ في كثير من الأحيان درجة من القوة وسعة الامتداد جديرة بالكلاسيكيين .

وبعضهم يهربون من الواقع المسفّ بالفكر أكثر ما يهربون منه بالشكل . فهم يحاولون أن يشعروك بما يعجز الكلام عن التعبير عنه ، وأن يشعروك بالمجهول الذي يثوي وراء مظاهر الحياة . وها هو سولوجوب ، في أشعاره وفي أقاصيصه ، يصبو إلى الموت ، ويتوق إلى الفناء ، وكذلك آننسكي الذي ترجم فرلين والذي كان يشعر ، مثل تيوتشيف ، بالغم والقلق تجاه ما يكمن وراء النظام الظاهري في الأشياء من فوضى واضطراب . وأما الفيلسوف فلاديمير سولوفييف ، فإنه خلافاً لذلك يسمعنا صوت الأمل

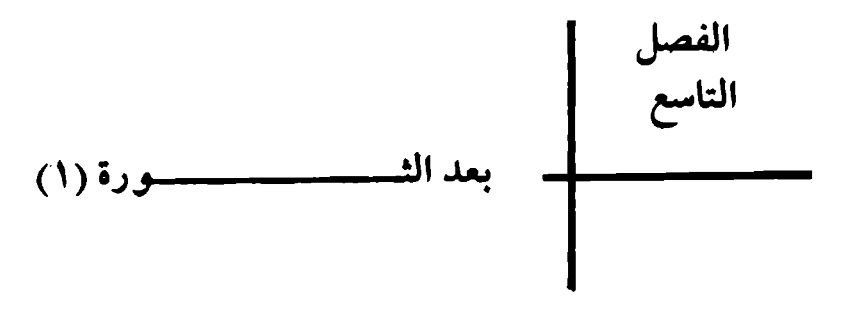
والرجاء ، ويغنينا نداء العالم الآخر ، ووساطة العنصر النسوي الخالد ، والاتحاد بالله . وإن تفكيره لينعش شعراء بطرسبرج ، وينفخ فيهم الحركة والحياة ، وكانوا يجتمعون في صالون سيرجكوفسكي وأمرأته زينايدا أو في «قلعة» فياتشلاف . وأما آندره بيلي (واسمه الحقيقي ب . بوجاتيف) فانه يعد نفسهْ تلميذ سولوفييف ، ولكنه يتجه نحو الحقيقة بنفس أقرب إلى العذاب والقلق ، تنتقل من الحماسة إلى اليأس .

ومع ذلك فإنه في أحلك ساعات حياته يظل يحتفظ بأيمانه بروسيا ، ويظل يؤ من بما لالآمه من قيمه ، فهي تغذي النفس وتخلصها ، وحين جاءت الثورة ، صرخ في حماسة عظيمة «لقد انبعث المسيح» . وهو في تفكيره قريب من الكسندر بلوك ، ولكنه لا يبلغ ما بلغه هذا من قوة على التصوير الحيّ ، ومن بساطة رائعة . أن كار بلوك (١٨٨٠ ـ ١٩٢١) شاعر عظيم خالد . ولقد ظل في ذاكرة جميع من لامسهم على إنه الشعر بعينه ، على إنه الشعر قد تجسد في إنسان . ولقد كان شاعرنا هذا إنساناً حالما يحب العزلة والوحدة . ولقد انحدر من أسرة تضم مثقفين كباراً ، ولقد كان هو نفسه على جانب عظيم من الثقافة وسعة الاطلاع ، وكان مشبعاً بروح الغرب ، وكان في أول حياته الشعرية يبدو بعيداً جداً عن هذا الشعب الذي أعاره صوته الجبار في ساعة مفجعة من ساعات حياته . . . لقد حدثنا ، في أشعاره الأولىٰ ، «إلى الغادة الجميلة (على غرار ما فعل سولوفييف) ، عن المرأة الخفية الهادية التي تسير بالرجل نحو الحقيقة . أن هذه المرأة ليست من هذه الأرض ، ولكنها تستطيع منذ الحياة الدنيا على هذه الأرض ان تتجسد لبعض الافذاذ في حب عظيم . فهي تارة الهة الشعر وهي تارة العذراء ، وهي تارة النجمة ، وأن الشاعر ليراها في نسمة الربيع ، وفي بياض أشعة القمر . ولكن القلق والغم ما يلبثان أن ينموا شيئاً فشيئاً في قلب الشاعر ، فاذا هو يتسائل وإذا لم توجد هذه «المرأة» أو لم تكن (وهذا أسوأ) إلا ابنة عادية ؟ عندئذ لم تعد هذه «المجهولة» تظهر له في سماء زرقاء من الأحلام ، وإنما ظهرت له في حانة من

حانات الضواحي وها هوذا يحاول أن يحزر سر نظرتها من وراء منديل وجهها . . . هنا تبدأ في حياة الشاعر فترة من الاضطراب والفوضى ، وأصبحت تراوده حالات مفاجئة من الرغبة العنيفة في العّب من ملذات الحياة (قصائد من ايطاليا) ، فيقبل على التهتك والسكر ، وسرعان ماتتبدد هذه الحالات إذ تخنقها الحياة اليومية الرتيبة الكئيبة . وشيئاً فشيئاً يأخذ شاعرنا يتعلق بحب روسيا ، كما فعل من قبله بيلي ، فإذا بروسيا تملأ قلبه ، وتحل محل «الغادة الجميلة» التي كانت تملأ قلبه بالأمس (كوليكوفو) . . . ولذلك حين أتت الثورة رأينا هذا الشاعر الانعزالي ، ينزل من برجه العاجي ، ويسير مع شعبه ، ويخفق قلبه مع خفقان قلب شعبه . وحين تدخلت الدول الغربية في شأن أمته ، رأيته ينظم الشعر محذراً هذه الدول (السيتيون) ، ويمكن أن تعد قصيدته «الاثنا عشر» (شتاء ١٩١٨) أجمل قصيدة أوحت بها الثورة . وأنها لقصيدة عجيبة ، جمعت كل الأوزان ، وكل النغمات ، وجمعت مشاهد تبلغ أحدّ أشكال الواقعية وأرشق صور التحليق . . . تقرؤها فإذا أنت تري الثورة تسير مع الريح الزائرة ومع عواصف الثلج ، يتعهدها المسيح تتوجه الأزهار ، ومن ورائه اثنا عشر جندياً أحمر . وهكذا نرى الشاعر في بلوك يتحد مع الانتفاضة الشعبية بلا تردد أو تحفظ . ولكن الإنسان الذي فيه لا يجيد التلاؤم مع الظروف القاسية التي عرفتها هذه السنين الهائلة الرهيبة ، وها هو ذا يموت ميتة حزينة عام ١٩٢١ .

«الأكميون» والاستقباليون ـ أن عبقرية بلوك أوسع من أطر الرمزية ، كما أن عبقرية بوشكين كانت أوسع من أن يحدها تعريف الرومانطيقية . وبينما كان بلوك يسير على خط تطوره ، كانت الرمزية في هبوط وأفول ، حتى لقد ظهرت منذ ذلك الحين اتجاهات تعاكسها وتحاربها . فمن جهة ، نرى كوزمين والجماعة التي سمتّ نفسها باسم «الأكميين» ، وجوميليف ، وآنا أخماتوفا ، وماندلستام ، وجوروفسكي ، يحاربون نزعة الموت التي سيطرت على الرمزية ، برغبة في الحياة عارمة قوية ، ويحاربون الموسيقى الرمزية

برسوم دقيقة وواضحة أما خود اسيفتش فإلى تأثيرات الرمزية فيه تجتمع دقة محسوبة قاسية . ويمكن ان نقول هذه الطائفة من الشعراء ، على ما بينها من فروق طفيفة ، تتجه إلى نوع من الكلاسيكية الجديدة . ومن جهة أخرى ، في الوقت نفسه تقريبا ، ظهر الاستقباليون ، واستقبلهم الناس بعاصفة من السخرية والهزء ، كما استقبلوا من قبلهم الرمزيين عام ١٨٩٥ ، وصرّحوا ، في أول أمرهم على الأقل ، حين كانت تعصف بهم رغبة الفتيان في الشذوذ والغرابة بل الفضيحة ، صرحوا بأنهم يريدون أن يمحوا الماضي كله ، وأن يحطّموا منطق العقل ، وأن يجعلوا مبدأهم اللفظة من حيث هي لفظة ، «لأن اللفظة أوسع من المعنى» فيما يقولون . وسنجد هذه المدرسة الشعرية ، وخاصة فلاديمير ما ياكوفسكي ، وجها لوجه أمام الثورة .



الفصل التاسع

بعد الثـــــــــــــــــورة (١)

الشعر .ـ حين جاءت الثورة فهدّمت ذلك البناء المشرف على السقوط منذ زمن طويل ، أعني روسيا القيصرية ، خشي الناس أن يعتبر الأدب تحت الأنقاض فإن الكتاب المعروفين ما عدا عدداً منهم (بلوك ، بيلى ، بريوزوف ، جوركي) هاجروا او انتحروا . ولكن لئن دام صمت النثر حتى عام ١٩٢٠ تقريباً ، فإن الشعر قد نشط منذ الشهور الأولى للثورة نشاطاً عظيماً . ولا عجب في ذلك ، فإن الشعر في جميع العصور أجود من النثر بالارتفاع الى مستوى الأحداث العظمى . أضف إلى ذلك أن الثورة الأدبية في ميدان الشعر ، قد تقدمت الثورة الاجتماعية وسبقتها فلما جاءت الثورة الاجتماعية وجدت شعراء عظاماً يغنونها . وقد رأينا أن قصيدة «الأثنا عشر» التي نظمها بلوك هي أجمل الأشعار التي أوحت بها الثورة . كما أن فن أمثال ايسنين وماياكوفسكي ، في الجيل الذي اعقب هذا الجيل ، كان قد تكوّن قبل الثورة . الا أن الثورة قد أذكت الالهام ، وألهبت الوحي ، وأوجدت نوعاً من الحمّى الشعرية ، والسكر بالشعر ، ولا يسعنا إلا أن نجني إعجاباً بهذه الوثبة إذا نحن عرضنا الظروف التي كان هؤلاء الشعراء ينظمون فيها اشعارهم : لقد كانوا يكتبون قصائدهم على جرار أو طاولة لانعدام وجود الورق ، وبعد ذلك أصبحوا يطبعونها على ورق غليظ مما يستعمل في لفّ الحوائج ، وكانوا ينشدون اشعارهم في المقاهي والشوارع ، وكان الجمهور

بينما الحرب الأهلية والمجاعة قائمتان على قدم وساق ، يتسابق على الاستماع إليهم ، ويتحمس لهم أشد التحمس ويتحزب لبعضهم على بعضهم الآخر .

وتتعارض المدارس ويحتدم فيما بينها التنافس : فهناك الاستقباليون ، أمثال سفيريانين وخلبينكوف وماياكوفسكي ، وآسييف ، وبورليوك ، هناك التصويريون أمثال اسنين ومارينهوف ، وشرشنيفتش ، وكوسيكوف ، وهناك النتشويون ، الخ وهناك النبائيون ، وهناك الوظفيفيون ، وهناك النتشويون ، الخ . ويشترك هؤلاء في أنهم جميعاً يريدون أن يعطوا العالم شعراً جديداً ، ولكي يفعلوا ذلك تراهم يلجئون الى البحث والتنقيب عن الوان من الأسلوب والصور والتعبيرات المولّدة تجعل فهمهم شاقاً عسيراً . وكان فنهم مسرفاً في الترف ارستوقراطياً بعيداً عن الشعب . وقد تراجع إخيراً هؤلاء الشعراء عن هذه المبالغات التي أحتج عليها لوناتشارسكي أحسن احتجاج .

ويجب أن نفرد مكاناً خاصاً لثلاثة شعراء فلاحين هم : كلتشكوف ، وكيويف وأسّنيق ، وهؤلاء على كونهم ظلوا في أعماق نفوسهم من رعاة التقاليد ، كانوا ينتظرون بروح مسيحية أن تكشف الثورة عن الوجه الحقيقي لروسيا الفلاّحة ، وكانوا يمقتون التقدم الصناعي اشد المقت أما كتشكوف فقد كان مصوّراً قبل كل شيء . وأما كيويف فقد كان صوفياً قبل كل شيء وأما سرج أسّنين (١٨٩٥ ـ ١٩٢٥) فقد كان رسّام مناظر قبل كل شيء . وآثاره جميعها تفيض حنيناً الى القرية القريبة من رياز التي قضى فيها طفولته ، ولكن لم يعرف فيها العمل القاسي في الحقول ، فهو من يعيد يلفح قريته هذه بالألوان «الزرق» التي تضفيها الذكرى على الماضي ويرش عليها عبير اسطورة دينية وأنه ليولّد صوراً جديدة جداً ، يستمدها من الحياة الريفية ، ومن الحيوانات الأهلية ، وهو يسرف في ذلك اثناء الفترة «التصويرية» من حياته

الشعرية إلا أن أجمل اشعاره بسيطة وموسيقية . وقد بعثرته المدينة وضيّعت النجاح الذي اصابه ، وضيعه أكثر من ذلك ايضاً زواجه بايزادورا دنكان . لقد تبعها الى فرنسا وأمريكا وشعر هنالك بأنه غريب ، ولكنه شعر ايضاً بأنه غريب في وطنه حين عاد إليه فقد أرادها ثورة على الآلة ، فإذا هي ظفر الآلة ، فما كان إلا أن لجأ الى الكحول «موسكو الحانات» «اعترافات صايع» ثم لجأ الى الموت ، وكتب يقول : «لم يعد شعري هنا ضرورياً ، وأنا نفسي لعلي لم أعد ضرورياً» .

أما فلاديمير ماياكوفسكي الذي انتحر هو أيضاً عام ١٩٣٤ (وقد ولد سنة ١٨٩٢) فإن مزاجه اقوى واشعر وطبعه اصلب واعنف ، وثورته عميقة في نفسه متأصلة . لقد جاء هذا العملاق من القوقاز قوياً متحمساً ، ولم تجذبه «الاستقبالية» اليها الا لأن نفسه كانت تفيض ثورة على التقاليد الأدبية البورجوازية . وأن غنائيته العنيفة ، رومانطيقيته الصارمة ، لا تشبهان في شيء غنائية اسّنين ورومانطيقيته . وهو في قصائده الأولى إنما يغني الحب ، كأروع ما يكون الغناء ، إلا أن الثورة قد حوّلت مجرى مواهبه «فالانا» تمحي أمام إرادة العمل من سبيل المجموع ، وها هو يحبس كل ما يملكه «الشاعر من قوة الرنين» على الطبقة المناضلة ، ويهزّ اشعاره جندياً في الحرب كما يهزّ المقاتل رمحه : لقد عرف كيف يعبّر عن ألم شعب بأسره في قصيدته عن موت لينين ، وعرف كيف يعبّر عن آمال شعب برمته في قصيدته «مائة وخمسون مليوناً» وهي هجوم جبّار على الرأسمالية . وحتى اسلوبه كان ثورياً : فعبارته مقطّعة ، وألفاظه عامية عن قصد ، وصوره وقوافيه مفاجئة غير متوقعة ، وأبياته قوية الرنين ، واضحة الوزن والتوقيع ، إنما نظمت لتلقى لا لتقرأ فحسب ، وكان صوت شاعرنا الجهوري حين يلقيها يحفرها في قلوب الجماهير حفراً . ثم إن قوة المعتقدات عند شاعرنا تحنق فيه روح النكتة التي نراها واضحة في ملهاته «البقّة» ، والتي تمتزج بأروع المشاعر في مسرحية «السر - المغني» التي تصور ظفر البروليتاريا ظفراً عاماً شاملاً .

وهناك شعراء بروليتاريون آخرون وضعوا أنفسهم في خدمة الشيوعية ، أمثال بيزيمينسكي ، وجاروف ، وأوتكين ، وجولود في ، وغيرهم ولكنهم ليسوا في منزلة ماياكوفسكي موهبة شعرية . أما بيزيمنسكي فإن أشعاره تغني التفاؤ ل الذي يريد الاتحاد السوفياتي أن يوحي به إلى الشبيبة («كوسومولياء» ، «بطاقة الحزب») . وهناك دميان بيدكي ، وقد نظم قصصاً خرافية وقصائد رباعية ، شعبية جداً ولكنها لاتخرج (اللهم إلا في «الشارع الرئيسي») عن النثر المقفّى وسرد الحوادث . على أن الفردية لم تمت مع ذلك . فبين الشعراء البرولتاريين هناك سفتلوف («مواعيد الليل») الذي يرتبط بالعرف الكلاسيكي ، وهناك كازين الذي ينظر إلى العالم نظرة غضة عيانية . وقد ظلت الغنائية لدى طائفة من الشعراء كانت امتداداً للعصر السابق ، وكأن الثورة لم تمسها : نذكر من هذه الطائفة ماندلستام ، وآنا أخماتوفا ، وبوريس باسترناك (ولد سنة ١٨٩٠) الذي دفع ضريبة للثورة قصائد ثورية («عام ١٩٠٥») إلا أن أصالته تقوم على كونه حتى الآن الشاعر الوحيد في الاتحاد السوفياتي الذي يكمّل سلسلة الشعراء الذين انصرفوا إلى الشعر الصرف وهو يقول : «إن الرسالة الوحيدة التي تقع على عاتق الشعر هي أن يكون جميلاً» .

ولقد شبّهوه بلرمونتوف من ناحية غنائيته الملتهبة ، وشبهوه بنيوتشيف من ناحية نظرته الحلولية . وعنوان الديوان الشعري الذي ضمن له الشهرة عام ١٩٢٢ هو «أختي الحياة» ، وإن هذا العنوان ليصلح عنواناً لجميع ما أنتج من آثار . إنه شديد الانتباه إلى رعشات العلم المحسوس وخفقاته ، وانه ليحّس هذه الرعشات وهذه الخفقات موسيقى تترجع في أعماق قلبه . وإنه ليجمع إلى نظرته الجديدة للواقع قدرة على إحالة هذا الواقع إلى حلم . وهو شاعر صعب ، رغم أن ألفاظه وتراكيبه بسيطة ، وذلك لأن استعارته ذات قفزات مفاجئة غير متوقعة ، ولأنه يكره الترابط ويحتقره . أما من ناحية الوزن فإن أشعاره كلاسيكية تقريباً ، ولابد أن نذكر أخيراً أن باسترناك الذي يعيش

التأمل والفن إنسان متوحد يعيش في عزلة عن الناس .

روايات الحرب الأهلية .- يرفع النثر رأسه حوالي عام١٩٢٠ ، وتحل الرواية محل القصيدة لتصوير الواقع وخدمة الدولة الجديدة . وان الروائيين السوفيتيين الأول أقل استقلالاً عن سابقيهم مما يظنون في سكرة البداية ، إلا أن فنهم لايخلو من صفات جديدة على كل حال . وهم يحبون اللوحات السريعة التي يذكرنا تعاقبها السريع بتكنيك السينما ، ويحبون الحوادث العنيفة ، والشخصيات الكثيرة ، ويحبون الاقلال من علم النفس . . . فبدلاً من أولئك المثقفين البائسين الذين صورهم لنا تشيخوف وقد سيطرت عليهم الكآبة وأخذوا يحللون أنفسهم ، أصبحنا نرى الآن أنصاراً وجنوداً متحمسين قساة ، لايراعون الحياة الانسانية ، لا حياة غيرهم ، ولا حياتهم هم أنفسهم واللغة أيضاً سريعة ، والجمل قصيرة» والحوار يحتل منزلة هامة ، والتعابير شعبية ومحليّة . فذلكم هو الأسلوب الذي يوافق الموضوعات التي عالجوها ، والتي استمدوها أولاً من الثورة ومن الحرب الأهلية فحسب . وإننا لنلاحظ في الروايات الأولى التي ظهرت في هذه الفترة نوعاً من الرومانطيقية الوحشية ، ومزيجاً من الحميّا القوية والسخرية القاسية ، نلاحظ حماسة صارمة وحشية ، ثم بعد ذلك ، كلما بعدت هذه الحوادث ، لاحظنا اللهجة تخف وتعتدل ، وتتسع ، ورأينا القّص يحل محل الحوار ورأينا الكتاب يزيدون تعمقاً في تحليل النفس .

ونذكر من هؤلاء الروائيين بابل الذي حاول الأدب قبل الحرب فلم يفلح ، ثم عمل في فرقة بوديني ، وقد أصدر مجموعة من الأقاصيص بعنوان «فرقة لفرسان الحمر» وفيها يصف لنا مشاهد من الحرب الأهلية ، بطريقة تذكرنا قليلاً بتشيخوف ، ولكن لهجته مختلفة عن لهجة تشيخوف كل الاختلاف ، وهي مزيج من الحماسة الشديدة والسخرية . وهو يصف لنا قسوة الحياة ، ويحب منها جمالها المفجع ،ويصف لنا مشاهد الذبح ، والسلب ، وهتك العرض وصفاً يصل فيه إلى أبعد حدود الحرية ، وتمتزج به دقة جافة ، ونوع

من الغنائية . ومن آثاره «حكايات يهودية» (ولقد كان هو نفسه يهودياً ومن أوديسا ، وفيها يصف لنا طبقة لصوص أوديسا بعين هذه الطريقة الملونة القاسية

وثمة رومانطيقية أيضاً في آثار السيبيري فسيفولد ايفانوف ، وفي حياته المغامرة التي جعلته طالباً ، وبحّاراً و «درويشاً» وجندياً ، وفي أقاصيصه التي عرضت الثورة عاصفة تمر على فيافي آسيا . وإن الحياة ، لدى من صوّرهم من أشياع الحزب («الأشياع» ، القطار المصفّح رقم ١٤ ـ ٦٩») ، ومن الفلاحين الثائرين (الرمال الزرق») لتسترد كل قوتها البدائية الهمجية ، في قلب طبيعة متوحشة وأخطار جائمة دائمة : جوع ، وبرد ، وحرّ هائل ، وغضب ، وحب ، وبغض . وهو يقول : «يمكن دائماً صنع انسان جديد» ، و«ليس أسهل من قتل انسان» ، «إنما ونحن ، والوحوش في حاجة إلى دم» .

وإن الروائية سيفولينالتصف سبيريا أيضاً ، سيلوفينا هذه معلمةمن أصل تتري فوصفت لنا الفلاحين وقد حررتهم الثورة («فيرينيبا») ، ووضعت لنا عصابات الأطفال الهائمين على وجوههم («خارج القانون») ، إلا أن واقعيتها التي حرصت هي على أن تجعلها فظة ليس فيها مافي واقعية ايفانوف من ألوان أخاذة .

وهناك بلنياك ، مؤلف «السنة العارية» ، وهو كاتب ينعم بثقافة عظيمة ، وهو ينفرد بكونه ثورياً تقليدياً ، ثورياً من أنصار السلافية . فهو يرى في الثورة عودة إلى روسيا كما كانت قبل بطرس الأول ، عودة إلى الروح القومية المتحررةمن تأثير الغرب إنه شديد التعلق «بالعزبة التي مازالت كما كانت منذ ألف سنة» ، شديد التعلق» بالحكمة الشعبية ، بحكمتنا القديمة «على حد تعبيره ، وهو يرى في البولشفيك أحفاداً للبوجاتيريين ، ويجب أن يفرق بينهم (كما فعل أحد أبطاله) وبين «الشيوعيين» المتأثرين بالنظريات الأجنبية .

ومن بين أشهر الروايات التي تناولت بدايات الثورة ، يجب أن نذكر أيضاً رواية «تشاپايف» لمؤلفها نورمانوف ، وخاصة رواية «وتكوّن الفولاذ» ،

لمؤلفها نقولا أوستروفسكي ، وهي رواية تصف حياة المؤلف نفسه ، وترى تاريخ تكون طبع . وان هذا الفتى الشيوعي ، الجندي والمناضل ، الذي يستمر على النضال والعمل وهو مريض ويكاد يكون أعمى ، ليقدم نموذجاً للشبيبة السوفيتية .

وكلما بعد عهد الثورة استفادت من ذلك المؤلفات التي تتناول الثورة ، فأصبحت أحسن بناء ، وأصبح لعلم النفس فيها نصيب أكبر . ونذكر الآن رواية «الهزيمة» لمؤلفها فادييف (١٩٢٧) ، وهي تصوّر الحرب في آسيا ، كما فعلت أقاصيص نسيفولود ايفانوف ، ولكن وحشيتها أقل ، ودراستها للطباع أرق وأرهف . وتقوى العودة إلى التقاليد الأدبية أكثر من ذلك أيضاً في رواية «الدون الهادىء» ، لمؤلفها شولوخوف ، التي بدأها عام ١٩٣٠ ، وهي تشبه رواية «الحرب والسلم» من حيث أنها مزيج من مشاهد الحرب ومشاهد الحياة العائلية ، ومن حيث أنها مزيج من شخصيات تاريخية وشخصيات خيالية . وفي هذه الرواية نلاحظ حرص المؤلف على الحياد وعدم التمييز ، فنراه ينصف الروس البيض ، ويعترف بما يتصفون به من شجاعة وصدق . إن هذا المؤلف الذى عاش بين قوزاق الدون ، والذي يتحدث لغتهم ، يبرع أعظم البراعة في وصف عادات هؤلاء الناس القريبين من الطبيعة ، وفي وصف أخلاقهم وصفاً حياً ملوناً ، ويعرف كيف يقحمنا في حياتهم ، فنشعر مشاعرهم ونشاركهم في مصيرهم ، وذلك خلال أكثر من ألف صفحة تتألف منها هذه الرواية .

على أن موضوعات أخرى تعرض للكتاب السوفيتيين منذ هذا الحين ، فإن الحرب الأهلية قد أصبحت من الماضي ، وينبغي الآن أن يهيأ المستقبل وان تبنى الدولة الاشتراكية . فما هو المكان الذي سيحتله الكاتب في العمل الاجتماعي المشترك ؟ لقد كانت الحكومة السوفيتية ، في أول الأمر ، لاتعنى بالأدب كثيراً ، فكانت تترك له قدراً كبيراً من الحرية ، لانشغالها بأعمال مستعجلة . حتى لقد استطاعت جماعة «اخوان سيرابيون» (وهم : زامياتين ،

وفسيفولد ايفانوف ، وزوشتشنكو ، وفيدين ، وكافرين)أن تكتب في بيانها ما يلي : «على الأثر الفني أن يعيش حياته الفردية الخاصة . ويجب أن يسمح له بتصوير عصره ، ولكن يجب أن لايكره على ذلك اكراهاً «أما الجماعة الاستقبالية السباعية التي أحد أعضائها ماياكوفسكي الذي عهد إليه لوناتشاوسكي خلال فترة من الزمن بتحرير «فن المنطقة» فهي تدّعى وهي مؤسسة تستوحي الماركسية ، ولكنها مستقلة عن الحزب الشيوعي ، وتهدف عن طريق المجلات والنوادي والمحاضرات إلى تربية الجماهير ، وإلى تثقيف المواهب التي ينبتها الشعب ، وتعليمها مهنتها . وان جوركي الذي قام بدور عظيم في حماية الأدب قد ساهم في هذه المؤسسة . إلا أن بعض الكتاب البرولتاريين لم يلبثوا مع ذلك أن وجدوا أن البرولتكولت تبعدهم عن الحياة وعن العمل الثوري . وها هي ذي جماعة «صب الحديد» تنادي بأن الأسلوب شيء ثانوي ، وان الأدبِ سلاح للنضال ، وها هي ذي تكره الفردية ، وتمجد الصناعة وترى أن الصناعة هي التي ستحرر الكون ، وتستنكر قيام جماعة «ن . ي . ب» التي تشجع من سمّوا برفاق الطريق ، أي الكتاب الذين يقبلون أن يمشوا مع الشيوعية دون أن يشاركوها كل آرائها (فهم: فسيفولود ، وبلنياك ، وليونوف ، وفيدين ، وتيخونوف) ، وكان هؤلاء يصدرون مجلة بعنوان «الأرض الحمراء» . إن هؤلاء الكتاب المستقلين الذين كانوا خير كتاب عصرهم كانوا هدفاً لهجوم عنيف من قبل الدعاة إلى ثقافة برولتارية وشيوعية صرفة ، وخاصة من قبل جماعة «اكتوبر» التي تصدر مجلة» إلى الجبهة» . وكان من أثر هذا الهجوم العنيف أن عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اجتماعاً خاصاً في مايو من عام ١٩٢٤ ، وبعد ذلك ببضعة أشهر صدر ذلك البيان المشهور بعنوان قرار الحزب في ميدان الآداب وهو بيان يشتمل على نظرات واسعة بشكل ملحوظ وفي هذا البيان نرى الحزب يعلن أنه يعارض معارضة مطلقة ان «تحتكر الميدان الأدبي منظمة واحدة» ، ويشجع «التنافس الحرّ بين شتى التيارات الأدبية » ، ويدعو إلى احترام التراث الثقافي

الذي خلّفه الماضي ، وإلى احترام التكنيك الفني ، وهكذا ربح رفاق الطريق قضيتهم ، وفي السنين التي تلت ذلك رأينا آثاراً أدبية ممتازة تخرج من بين صفوفهم . ومع ذلك لم تكن معاركهم قد انقطعت . فحلت محل جماعة اكتوبر جماعة أخرى هي جماعة «ف . أ . ب . ب» «(الاتحاد العام للكتاب البرولتاريين») ، التي كان فرعها الروسي الخاص يسمى باسم ر . أ . ب . ب ، وهو الذي ضاعف الهجوم عام ١٩٢٩ أبان مشروع السنوات الخمس الأولى . وأنذر رفاق الطريق بأن عليهم أن يضعوا أنفسهم في خدمة المشروع ، وقبلوا جميعهم تقريباً ، «الأوامر الاجتماعية» للدولة . وكان من اخلاصهم الواضح ونجاح المشروع الأول أن خفت وطأة هذا التنظيم مرة أخرى عام ١٩٣٢ ، ولكي تزول العداوة بين هذه الجماعات حلّت جماعة «ف . آ . ب. ب» (فابّ) ، وتألفت جمعية جديدة واحدة تضّم جميع الكتاب سميت باسم (اتحاد الكتاب السوفيتيين» ، وجعل الانتساب إلى هذا الاتحاد حراً لايشترط فيه مبدئياً إلا أن يتعهد طلب الانتساب بأن يعمل على البناء الاشتراكي بالمنهج المسمى بمنهج (الواقعية الاشتراكية ، وإن هذه الصيغة الحرة أتاحت في السنين التي سبقت الحرب ، لميول متنوعة جداً أن تظهر ، وأتاحت لنزعة انسانية جديدة أن تلوح تباشيرها . وجاءت ضرورات الحرب فحملت الدولة على العودة إلى تشديد التنظيم . ويجب أن نضيف أن الدولة ، وهي الناشر الوحيد والبائع الوحيد تكافىء المؤلف الناجح بسخاء عظيم ، وتضمن له مركزاً ممتازاً .

روايات مشروع السنوات الخمس .ـ ولكن فلنعد إلى مشروع السنوات الخمس الأول حيث يقف الأدب نفسه على تغيير اقتصاديات البلاد . وحتى قبل هذا المشروع نلاحظ أن الرواية التي طبع منها أكثر عدد من النسخ في الأدب السوفييتي إنما هي رواية «الاسمنت» لمؤلفها ف . جلادكوف التي تصف استئناف العمل في مصنع من المصانع بعد الثورة . وبعد ابتداء من عام ١٩٢٩ . ظهرت طائفة من المؤلفات من هذا النوع تمجد خلق المصانع

الجديدة ، وتمجد ضم الأراضي في تعاونيات مشتركة . فرواية «اصلاح الأرض» لشولوكوف ، ورواية «بروسكي» لبانغيروف ، تمجدان الكولخوز كما أن كاتاييف («ايه أيها الزمان ، إلى الأمام») يصف مشروع مانييتوجورسك الجبار وبلنياك («الفولجا يصب في الخزر) يصف بناء سدّ ، وليونيد ليونوف («النهر سوت») يصف تأسيس مصنع للورق . ان لهذه المؤلفات قيمة الوثائق التاريخية . إلا أن منها مايسمو على تلك المؤلفات المبتذلة المهددة المتكررة التي تصف الشيوعي الفاضل والمخرّب الشرير ، فيبينٌ بقوة عظمة العالم الجديد تجاه العالم القديم ، ويتغنى بالعمل في صفحات تكاد تكون غنائية

روايات هجائية ونفسية .ـ ومع ذلك فقد ظهرت اتجاهات أخرى ، وانبثقت مؤلفات شخصية وخاصة بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٩ ، وبعد عام ١٩٣٢ فلا الحماسة الثورية ولا الحماسة للعمل بقادرتين على أن تخنقا لدى الروسيين حسّ النكتة ، وحب التحليل النفسي . فإنهم يحملون في أنفسهم تراث جوجول ودوستويفسكس ، والنقد الذاتي كان يشجع دائماً في الاتحاد السوفياتي ، ومع ذلك فهذا طريق يجب أن لايسير فيه المرء إلا بحكمة وروية . فهذا زاميارتين رغم أنه جعل حوادث روايته «نحن» تجري في القرن السادس والعشرين ، لايستطيع أن ينشر هذه الرواية في روسيا ، وهذا زوشتشنكو يفصل عن اتحاد الكتاب . وكانت رواياته قد امتعت الجمهور وأضحكته خلال سنين طويلة ، إذ وصفت بعض جوانب الحياة اليومية في الاتحاد السوفياتي وصفاً هزيلاً يبعث على الضحك ، وكانت سخرياته بريئة جداً في الغالب ، إلا أنها كانت في بعض الأحيان تخفي نقداً حقيقياً ، وكان المؤلف يجري هذه السخريات على لسان شخصية ما ، وكانت لغته سائغة عذبة لذيذة . ومن الكتاب الساخرين المزليين أيضاً الفوبتروف («الكراس الاثنا عشر» وكاتاييف (المستفيدون) ، وبولجاكوف (شيطنة» ، ومغامرات تشتشيكوف) .

أما سخريو ايليا أهرمبورج فإنها تتناول المجتمع الرأسمالي خاصة . وقد

عاش هذا الكاتب في الغرب دائماً تقريباً ، فكان يكتب للشعب الروسي يصف له البلاد الأجنبية وينتقدها وهو كاتب متنوع الميادين خصب ، وقد أوتى موهبة صحفية عظيمة بوجه خاص . نذكر من مؤلفاته «المغامرات العجيبة التي قام بها جوليو جورينيتو ومريدوه» ، وهو كتاب يطوف بنا جميع اجزاء العالم وراء محرّض مكسيكي ، ثم «تروست د . إ» وفي هذا الكتاب يتصور المؤلف الآلية الأمريكية تطمن العالم وتسحقه ، ثم «موسكو لا تؤمن بالدموع» وفيه يصور لنا الأوساط الباريزية ، ثم روايته الأخيرة الكبيرة «سقوط باريز» وفيه نرى نقداً قاسياً لاوساط فرنسا السياسية ، ونلاحظ مع ذلك عطفاً صادقاً على آلام فرنسا .

وإلى جانب هذا الاتجاه الهجائي نلاحظ ايضاً الرغبة في العودة الى التحليل السيكولوجي ، إلى التقاليد الأدبية التي عطلتها الثورة ، وذلك خاصة لدى المستقلين ، الذين لم تستغرقهم المشاكل السياسية ذلك الاستغراق التام . فمنذ عام ١٩٢٤ ظهرت رواية «المدن والسنون» لمؤلفه فيدين ، وهو لا يدرس الوان النضال التي قامت بها الثورة وأنواع الأعمال التي حققتها الثورة ، بل درس صدى هذه الثورة في النفوس ، وترجيعها في القلوب . فبطل هذه الرواية طالب يريد ان يندمج في العالم الجديد ، ولكن عواطفه الشخصية من حب وشفقة تسيطر عليه ، فيؤدي به ذلك الى خيانة القضية .

وللمؤلف روايات اخرى (مثل«الاخوة» وغيرها) تفسح للفردية مجالا كبيرا . وهناك رواية Les blaireaux من تأليف لينيد ليونوف (١١٩٢٥) ، وهي تجسّد النزاع بين المدينة والقرية في نفس اخوين عدويّن . ومن الواضح جدا ان ليونوف وفيدين كليهما تعنيهما الحياة «ورائحتها الحادة القاسية . . .وضعف ثباتها . بل وسخفها الحكيم «أكثر مما تعنيهما المذاهب والعقائد .

ونرى هذا الاستقلال أوضح وأبرز ايضاً لدى كافرين وأوليشا . أما كافرين فنراه في روايته «من مصور مجهول» يدافع عن الحرية المبدعة ، ويدافع عن

الرومانطيقية ضدّ النفعية وعن المشاكل الروحية والاخلاقية ضد الصناعة والتكنيك . فإن بطله الذي غلبته الحياة وانتصرت عليه ، يعيش ويخلد بالفن ، وهي رواية «الحشد» (١٩٢٧) فإن صفحاتها الموجزة ، التي تطالعك بنضارة عظيمة وألوان جديدة جداً ، فإن لها قدرة على الإيحاء خارقة للمألوف . وهي تصور لك الانسان الجديد ، المستقيم ، الفعّال النشيط ، إنساناً آخر ، خائباً ، حسوداً جباناً ، وتشعرك مع ذلك بأن هذا الانسان غير المتلائم مع المجتمع لا يتصف بالدناءة فحسب بل يشعر ايضاً بحاجة الى الجمال والعاطفة ، والهروب . ولا وليشا ايضاً كتاب خيالي جميل جداً ، كتب للأطفال وهو كتاب «الثلاثة السمان» .

روايات خيالية وروايات تاريخية . ـ وهناك مؤلفان اخرون افلتوا من الواقعية المسرفة وانصرفوا الى الرواية الخيالية والرواية التاريخية . واكبر هؤلاء الروائيين الكسي تولستي (١٨٨٢ ـ ١٩٤٦) الذي هاجر في أول الامر ثم عاد الى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٢٢ . وقد أعمل موهبته في جميع ميادين النشاط الادبي ، ونشر اثار متنوعة الى اقصى حدود التنوع ، ولعل الصفة الوحيدة التي تشترك فيها جميع اثاره هو انه متعلق تعلقا عميقا بكل ما هو روسي ، فهو وطني متحمس متطرف . من اثاره كتابه «طريق الالآم» ، الذي بدأه بباريس وانهاه قبل موته بثلاثة اشهر فحسب ، وهو لوحات عظيمة تصور الاوساط الفكرية الروسية قبل الثورة واثناء الثورة ، وبعدها ، ثم«الخبز» وموضعها دفاعة ستالين عن تسارستين اثناء الحرب الاهلية . الا ان شهرة تولستوي ترجع الى رواياته الخيالية التي تشير على غرار ولوز ، مثل Aelita التي ترينا حملة سوفياتية تساعد ثورة الكوكب السيّار مارس ، ومثل «ثورة الالآت» وغير ذلك وترجع بوجه اخص الى روايته التاريخية الكبرى عن «بطرس الاول» ، وهي اثر جبّار يمور بالحياة ويفيض بالاوان يمثل كل المجتمع الروسي في بداية القرن الثامن عشر ، يمثّل البوير والجنود والفلاحين ، وقدمى المؤمنين المتعصبين ، وألمان سبولودا ، ويمثل على رأس هؤلاء جميعا تلك الشخصية

تلك الشخصية العظيمة التي تفوق حدود الانسان ، تلك الشخصية الثورية التي استبقت ما حققه المجتمع الحالي من تغييرات ، يعني شخصية القيصر العظيم .

وتكاثرت الروايات التاريخية في السنين الاخيرة التي استبقت الحرب ، ومما ساعد على ذلك تيقظ الروح الوطنية والكبرياء القومية ، وجاءت هذه الروايات تغذى هذه الروح الوطنية وهذه الكبرياء القومية وتقويهما : منها روايات عن الثائرين المتمردين امثال ستنكارازين او بوجاتشيف ، ولكنها ايضا روايات عن ايفان المرعب ، او دمترى دونسكوى او الكسندر نفسكى ، وروايات من التريخ الحديث : فسرجيف ـ تسنسكى يصف لنا «آلام سيباستوبول» ونوفيكوف بريبوي التي تصور حياة بعض الاشخاص قد نالت حظوة واهتماما كبيرا فها هو ذا تينانوف يكتب حياة بوشكين ، وكروشلبيكر ، وجربيويدوف . وكانت تلك الحركة كبيرة دفعت الروس الى تعظيم امجاد ماضيهم والتغني بها وذلك قبيل اندلاع نار الحرب التي انتحنت وطنيتهم هذه امتحانا عظيما .

المسرح ـ لقد اجتاز المسرح منذ عام ١٩١٧ ، عين المراحل التي اجتازتها الرواية وعلى أن الأصالة والكمال في الاخراج المسرحي بروسيا لايضارعان ، فإننا لم نشهد الا عدداً قليلاً من الاثار المسرحية العظيمة ، كما كان الامر كذلك قبل ١٩١٧ فإن روسيا تظل بلاد الرواية ، وكثير من المسرحيات استخرج من الروايات المشهورة الناجحةوتكاد تكون الحرب الأهلية هي الموضوع الوحيد التي تدور حوله المسرحيات في بداية الأمر ، نذكر من ذلك المسرحيتين الأخيرتين اللتين كتبهما جوركي «ابجور بولتشيف« «دوستيجيف وشركاه« وّهما تصوير كاريكاتوري لبورجوازية الاقاليك ساعة الثورة . اما الاولى فان شخصية البطل بولتشيف القوية ، وموقفه من نهاية هذا العالم الذي كان عالمه ثم موته القريب هو ايضا كل ذاك يضفي على المسرحية شيئا من القوة ، وهي تصور بشيء من السخرية والفكاهة المجتمع الرجعي في اوديسا

ساعة نزول الحلفا . وهناك «نهاية الاسطول» من تأليف كورنتشوك وهي تحدثنا عن بطولة تجارة البحر الاحمر . وبعد ذلك بقليل ظهرت مسرحيات دعاية مثل الخبز «من تأليف كيرشون ، وهي ذعوة الى العمل ، وحتى قطع البالية كان لها مغاز سياسية . وشيئا فشيئا انصرفت العناية بعض الشيء الى المسرحيات النفسية وابرزها «قائمة اعمال الخير» ، و «شاب قاسي» لاوليشا ، وكذلك الى المسرحيات الفكاهية مثل «تربيع الدائرة» ، وهي لوحة هزلية جميلة تصور حياة الطلاب العاطفية وقد عقدّتها ، واخيرا الى المسرحيات التاريخية فمن «ايفان المرعب «الذي صورّه الكسي تولستوي على انه يمثل الروح الديموقراطية امام البوير المتغطرسين ، وعن سوفوروف او كوفوزوف .

أنه يمثل الروح الديموقراطية امام البوير المتغطرسين ، وعن سورفوف أو كوفورزوف .

أدب الحرب ـ جاءت الحرب . فانبرت لها جميع المواهب الأدبية ، كما حشدت لها جميع قوى الأمة . وهاهم الشعراء يهيبون بالناس أن حيّ على السلاح : أ . سوركوف ، دميان بيوني ، جولودني ، ن . تيخونوف ، وغيرهم كثير ، ولكن يجب أن نعترف بأن فن هؤلاء الشعراء يقصرّ عن مقصدهم في غالب الأحيان . أما ايساكوفسكي فقد عرف كيف يجد نبرة الشعر الشعبي ، وأما تفاردوفسكي فقد عرف كيف يخلق نموذج جندي مفعم بفرحة الحياة ، حتى امام الموت «فاسيلي تيركين» . الرجولة البسيطة الحلوة . سيمونوف فإنه ليبلغ في غالب الأحيان اعظم مراتب الرجولة البسيطة الحلوة : وان روسيا كلها لتحفظ على ظهر القلب كثيراً من قصائده أمثال «انتظرني» ، «انك تتذكر يا أليوشا» . ولقد كان سيمونوف صحفياً في الجبهة ، وروائياً ، ومؤلفاً مسرحياً وشاعراً في الوقت نفسه ، وقد ساهم في الدفاع عن ستالينجراد ، ثم صوّر لنا هذه المعركة تصويراً بسيطاً جداً وانسانياً جداً في روايته «الأيام والليالي» ولعل هذه الرواية أن تكون أجمل رواية انتجتها هذه الحرب . وأما مسرحياته ، مثل «ناس روسيا» و «فتى من بلدتنا» فقد ألهبت

شجاعة الشبان وأذكت حماستهم . ثم أن الحرب قد ولّدت عدداً كبيراً من المؤلّفات الدرامية . فهناك مسرحية «الجبهة» التي كتبها كورنيتشكوك تصور لنا جندياً قديماً من جنود الثورة ، وتصور لنا القائد الذي يقتضيه تكنيك القتال الحديث ، ويضع احدهما امام الآخر . وهناك مسرحية «الغزو» التي كتبها ليونوف وهي تصور لنا آلام مدينة صغيرة محتلة ثم تصور لنا النهوض من الكبوة بتضحية شاب تائه يقدم حياته انقاذاً الحياة زعيم الانصار . وهي تشتمل على مشاهد درامية عنيفة مؤثرة . وأغزر من ذلك ايضاً الانتاج الروائي والقصصي . وها هي ذي اسماء جديدة تضاف الى الأسماء المعروفة ، الى اسماء الكسي تولستوي ، وإيليا اهرمبورج (الذي كان نشاطه جباراً) وشولوخوف وليونوف ، وكاتاييف ، وفادييف . وجميع الآثار التي ظهرت في هذا المضمار تشترك في صفتين اثنتين أولاهما الحماسة الوطنية ، والثانية هي الوضوح والبساطة واحتقار التصنع في الأسلوب ، وذلك عن قصد وتعميم ، فإنها قد كتبت للشعب ، وكان لا بد من أن يفهمها الشعب . فألكسندر بيك ، في روايته ، درب فولوكولامسك ، يروي لنا بحماسة بل وبفكاهة ايضاً كيف ان ضابطاً خلق الروح الجمعية في طابوره وجعل منها ادارة قتال . وليونوف في «الاستيلاء على فيليكوشومسك «يروي لنا بدون مبالغة ولا تقطع المغامرة البطولية التي تقوم بها فرقة من فرق الدبابات . وتيخونوف يصور لنا البطولة الهادئة التي اظهرها سكان لينينجراد المحاصرون ، وكاتاييف يروي لنا بطولة المحاربين في أوديسا القبور» ، وجرباتوف يصف لنا الأمل القوي الذي لا يغلب ولا يقهر في الأرياف التي خربتها الحرب «الذين لا يخضعون» ، أما الرواية «الحرس الشاب» التي ألفها فادايف فهي تقص علينا قصاً صادقاً جداً ، لا يكاد يزيد على الواقع شيئاً ، قيام شبكة من شبكات المقاومة في منطقة دونش تتألف من شباب وشابات ويروى لنا النهاية المفجعة التي انتهت اليها هذه الشبكة ، ويعرف كيف يحفظ للبطولة عبير الشباب وعطره . صحيح انه ما من أثر من هذه الآثار يعدُّ اثراً خالداً من

الناحية الأدبية ، ولكنها تؤلف الحوليات الحية المؤثرة الرائعة لأمجد فترة من فترات التاريخ الروسي .

أما في أي الاتجاهات سيسير الأدب الروسي غداً ، فإن امكانيات لاحصر لها تنفتح اليوم امام روسيا ، بفضل تيقظ الجماهير الفقيرة على الثقافة ، وبفضل ما تأتـي به القوميات المتنوعة في الاتحاد السوفياتي من إغناء للثقافة ، وبفضل هذه الوثبة الجبارة التي عمت البلاد جميعاً .

فلنقصر عن التنبوءات ، ولكنتف بأن نتمنى ان يستمر ، في المستقبل ، اتحاد الأدب والأمة ، هذا الاتحاد الذي صنعته المحن الأخيرة .